علو الهمة

تأليف فضيلة الشيخ

سيد عبد العاطي

إمام وخطيب الجمعية الإسلامية

بالسارلاند - ساربروكن - ألمانيا

الإهداء

إلى أم حبيبة إلى سر سعادتى

إلى والدىَّ الأعزاء إلى سبب وجودى فى الحياة

إلى أئمة الهدى ومصابيح الدجى من العلماء الربانيين والدعاة المخلصين

وأخيرًا إلى طلبة العلم الراشد فى كل مكان وزمان.

أبو حبيبة

سيد عبد العاطى محمد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة:

الحمد الله جلّ وعلا.. ذى الأسماء الحسنى والصفات العلى.. وأصلى وأسلم على نبى الهدى وعلى آله وصحبه ومن اهتدى..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٣).

ثم أما بعد:

فإننى قد نظرت بعمق إلى أحوال المسلمين هذه الأيام وكم كنت أتألم لما نحن فيه من ضياع وتفرق وتشتت وجهل..

والإسلام هو القوة والسعادة.. وهو دين العلم.. وهو مُخلِّص البشرية من كل ضياع وهلاك.

أصبحت أمة الإسلام فى ضعف وهوان بعد أن كانت ذات عزة وسيادة وتمكين وهذا هو حبيب الله محمد ﷺ يقول فى حديث جليل يصف فيه حال أمة الإسلام وكأنه ينظر إلينا من خلف حجب الغيب.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٢ .
(٢) سورة النساء آية ١ .
(٣) سورة الأحزاب الآيات ٧٠ - ٧١ .

قال رسول الله ﷺ: «توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلةُ إلى قصْعتها، فقال قائل: أوَ من قلةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزِعنَّ الله من صدور عدوكم المهابةَ منكم، وليقذفنَّ الله فى قلوبكم الوهَن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟

قال: حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت»(١).

إنّ المخرج مما نحن فيه الآن من ضعف وهوان يتمثل فى الالتزام بالإسلام فالإسلام هو المخلِّص للبشرية من الذل والهوان.. إنه ليس عقيدة فقط إنه عقيدة وشريعة.. ليس عبادات فقط إنه عبادات ومعاملات.. ليس يقينًا فرديًا فقط إنه نظام جماعى إلى جانب أنه إيمان فردى.. إنه كما شاع التعبير دين ودولة.

أحبتى فى الله إننا مقبلون على أيام شِداد أشد سوادًا من الليل المظلم.. إننا مقبلون على أيام زُرق وهذه حقيقة لا مِراء فيها ولا جدال إن لم نعد إلى إسلامنا..

وصدق الرسول الكريم ﷺ إذ يقول: «بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسى كافرًا، ويمسى مؤمنًا ويصبح كافرًا يبيع دينه بعرض من الدنيا»(٢).

وقال أيضًا ﷺ فيما روته السيدة زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ قالت: «خرج رسول الله ﷺ يومًا فزعًا محمرًا وجهه يقول: لا إله إلا الله. ويلٌ للعرب من شر قد اقترب فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بإصبعين الإبهام والتى تليها قالت: فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»(٣).

---

(١) أبو داود كتاب الملاحم، ج٢ ص٢٥٠ .
(٢) أخرجه الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٣) أخرجه الإمام البخارى .

نعم إن عزنا وسعادتنا فى تمسكنا بالإسلام فهذا هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وأرضاه يقول فيما ترويه كتب السيرة:

يقول الفاروق عمر بن الخطاب: «لقد كنا أذل قوم فأعزنا الله تعالى بالإسلام ومهما ابتغينا العزة فى غير الإسلام أذلنا الله تعالى».

أحبتى فى الله إن أمة الإسلام فى هذه الآونة لكى تخرج مما هى فيه تحتاج إلى «همة عالية» ترقّيها وتُعلّيها وترفع قدرها وتميزها عن غيرها من الأمم.

وموضوع هذا البحث المتواضع هو: «الهمة العالية» كسبب من أسباب العزة والسيادة، كسبب من أسباب السعادة فى الدارين، الدنيا والآخرة.. كسبب من أسباب التمكين لأمة الإسلام..

وهذا ما سوف نحاول إلقاء الضوء عليه بمشيئة الله وتوفيقه وأسأل الله تعالى التثبيت والثبات والإخلاص إنه تعالى أهل ذلك ومولاه والقادر عليه، سبحانه.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢).

أبو حبيبة - سيد عبد العاطى محمد

* * *

(١) سورة آل عمران آية ١٤٧.
(٢) سورة الممتحنة آية ٤، ٥.

الباب الأول
مفهوم الهمة العالية

تعريف الهمة:

تعرَّف الهمة فى لغة العرب بأنها: ما هُمَّ به من أمرٍ ليُفعَل.

وتعرَّف أيضًا بأنها: العزم القوى.. والهمة فعلة من الهم.. والهم هو مبدأ الإرادة.. يُقال: همَّ بالأمر همًّا: عزم على القيام به ولم يفعله.

ويُقال: همَّ الأمر فلانًا: أقلقه وأحزنه.. وعاناه وأثار اهتمامه فالهمُّ مبدأ الإرادة والهمة نهاية الإرادة.

شيخ الإسلام ابن تيمية ومفهوم الهمة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى –: ورد فى بعض الآثار الإلهية: يقول الله – تعالى –: «إنى لا أنظر إلى كلام الحكيم، وإنما أنظر إلى همته»[١].

وقال أيضًا – رحمه الله تعالى –: العامة تقول: قيمة كل امرئٍ ما يحسن، والخاصة تقول: قيمة كل امرئٍ ما يطلب.

يريد: أن قيمة المرء همته ومطلبه.

الإمام ابن قيم الجوزية ومفهوم الهمة:

يقول الإمام ابن قيم الجوزية – رحمه الله تعالى – فى كتابه القيم «مدارج السالكين»: «الهمة: ما يملك الانبعاث للمقصود صرفًا، لا يتمالك صاحبها ولا يلتفت عنها».

قوله: «يملك الانبعاث للمقصود»[٢] أى يستولى عليه كاستيلاء المالك على المملوك، و «صرفًا» أى خالصًا صرفًا.. والمراد أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلبًا صادقًا خالصًا محضًا فتلك هى الهمة العالية التى «لا يتمالك صاحبها» أى لا يقدر على المُهلة ولا يتمالك صبره لغلبة سلطانه عليه وشدة إلزامها إياه بطلب المقصود «ولا يلتفت عنها» إلى ما سوى أحكامها.

وصاحب هذه الهمة: سريع وصوله وظفره بمطلوبه ما لم تعقه العوائق وتقطعه

---

(١) مدارج السالكين ج٣ ص٣ .

(٢) المصدر السابق .

العلائق والله أعلم.

عمر بن عبد العزيز و الهمة العالية :

فهذا هو أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه وأرضاه - يعبر عما يجول فى نفسه التواقة إلى الطموح والسمو والعلو بقوله:

«إن لى نفسًا تواقة، لم ترتق إلى منزلة إلا تاقت إلى ما هى أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التى ليس بعدها منزلة، وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة»(١).

شاعر الإسلام «النابغة الجعدى» والهمة العالية:

وعن السمو والطموح والتطلع والهمة العالية يقول شاعر الإسلام «النابغة الجعدى» على مسمع من رسول الله ﷺ:

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرا

فيسأله الرسول الكريم ﷺ: ثم إلى أين يا أبا ليلى؟

فيجيبه النابغة: إلى الجنة معك يا رسول الله.

فيهش الرسول ﷺ لذلك ويقول ﷺ:

«لا يفضض الله فاك»(٢).

الخلاصة:

مما سبق يتضح أن الهمة العالية هى: تعلق العبد بالحق تعالى تعلقًا صادقًا خالصًا محضًا..

والهمة إنما تكون فى كل شىء فهى تعنى النظر إلى معالى الأمور وعدم النظر إلى سفاسف الأمور وطلب المنزلة العليا فى الدنيا والدين.

والهمة تعنى التطلع إلى الكمال.. تعنى التطلع إلى السمو والرقى.

وبغير هذا التطلع والطموح والهمة العالية لا يمكن أن يكون الإنسان حضاريًا.

وما دامت الهمة إنما تكون فى كل شىء فهيا نطوّف مع الهمة العالية ومع أصحاب الهمم العالية من الرعيل الأول مع أصحاب النفوس الزكية والأفهام النقية والأيدى الطاهرة والقلوب العامرة بالإيمان والتوحيد الخالص لله رب العالمين.

---

(١) رواه ابن عبد الحكم فى كتاب (ملامح انقلاب إسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز) لعماد الدين خليل ص١٩٤ .

(٢) ابن حجر: الإصابة فى تمييز الصحابة .

الباب الثانى
الهِمةُ فى الحُبِّ

جاء فى معاجم اللغة أن كلمة (الحُبّ) بمعنى الوِدَاد والميل الشديد إلى الأشخاص أو الأشياء العزيزة أو الجذابة أو النافعة.

وبمشيئة الله وتوفيقه فى سياق حديثنا عن الهمة العالية فى الحب سوف نتحدث عن:

١ - الهمة العالية فى حب الله جلّ وعلا.

٢ - الهمة العالية فى حب رسول الله ﷺ.

٣ - الهمة العالية فى حب خلق الله جلّ وعلا.

أولاً - الهمة العالية فى حب الله تعالى:

قال الإمام الجليل ابن قيم الجوزية فى كتابه القيم «مدارج السالكين» عن الحب.. وعن محبة الله تعالى: محبة الله تعالى هى المنزلة التى تنافس فيها المتنافسون.. وإليها شخص العاملون.. وإلى علمها شمر السابقون.. وعليها تفانى المحبون.. وبروح نسيمها تروح العابدون.. فهى قوت القلوب.. وغذاء الأرواح.. وقرة العيون..

وهى الحياة التى من حرمها فهو من جملة الأموات.. والنور الذى من فقده فهو فى بحار الظلمات والشفاء الذى من عدمه حلّت بقلبه جميع الأسقام.. واللذة التى مَنْ لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام.. وهى روح الإيمان والأعمال.. فهى الغاية العظمى التى يسعى إليها الخلق لينالوا الرضا والعفو.. وقال العلماء: من عرف نفسه أحب ربه وذلك لأن من طبيعة الإنسان حب الخير لنفسه وحب البقاء فإذا علم الإنسان أن خيره وسعادته وبقاءه بيد الله

عز وجل فإن ذلك سيكون أكبر دافع لحب الله تعالى فمحبة الله تعالى هى الغاية العظمى وتعنى الاستسلام والانقياد والذل والخضوع لعظمة الله تعالى.. وتعنى أيضًا عشق التكاليف ما دامت هذه التكاليف من المحبوب الأعظم من الله سبحانه وتعالى واعتبار هذه التكاليف تشريفًا وتكريمًا.

جاء فى الحديث الشريف المرفوع إلى النبى ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق: أحينى إذا كانت الحياة خيرًا لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى، وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا، وأسألك القصد فى الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك، فى غير ضراء مُضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زيِّنا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين»(١).

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على الحب والشوق إلى لقاء الله وصدق اعتماد القلب على الله عز وجل فى جلب المنافع ودرء المفاسد.. باختصار اشتمل الحديث على الحب فى أسمى معانيه وعلى الشوق فى أعلى مراميه.

وفى الصحيح عن أنس بن مالك - رضى الله عنه وأرضاه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقى فى النار»(٢).

فمن الأسباب الجالبة للسعادة وتذوق حلاوة الإيمان «محبة الله تعالى» فإذا تحققت محبة الله من جانب العبد وانقاد لأمر الله عز وجل فإنه يحظى بمحبة الله تعالى له ويفوز بمعية الله سبحانه وتعالى فى أحواله كلها..

(١) مستدرك الحاكم، صحيح ابن حبان.
(٢) رواه الإمام مسلم، والترمذى.

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه وأرضاه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ من أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه»(١).

هذا.. ومحبة الله تعالى من الأسباب الجالبة للسعادة والرضا والقبول بين أهل السماء وأهل الأرض..

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه وأرضاه - عن النبى ﷺ قال: «إذا أحب الله العبد دعا جبريل فقال: إنى أحب فلانًا فأحبه فيحبه جبريل - عليه السلام - ثم ينادى فى السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه.. فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض..»(٢).

وذُكر فى البُغض عكس ذلك والعِياذ بالله..

وعن أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها وأرضاها - فى حديث أمير السرية الذى كان يقرأ: «قل هو الله أحد» لأصحابه فى كل صلاة، وقال: لأنها صفة الرحمن. فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبى ﷺ: «أخبروه: أنَّ الله يحبه»(٣).

إنها السعادة القصوى والفرحة العظيمة والنجاح الكبير أن يحظى الإنسان بمحبة الله سبحانه وتعالى.. هذه المحبة الجالبة للراحة والأمن والأمان والسكينة.

فعن أبى إدريس الخولانى عن أبى الدرداء - رضى الله عنهم أجمعين - عن النبى ﷺ أنه قال: «كان من دعاء داود عليه السلام: اللهم إنى أسألك حبك،

(١) صحيح البخارى.
(٢) صحيح الإمام البخارى، وصحيح الإمام مسلم، ومسند الإمام أحمد.
(٣) البخارى ومسلم.

وحب من يحبك، والعمل الذى يبلغنى حبك، اللهم اجعل حبك أحبَّ إلىَّ من نفسى وأهلى ومن الماء البارد»[١].

إنه الحب الذى تملك قلب ونفس هذا النبى الكريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم فجعل هواه وفقًا لمراد ربه عز وجل جعله مُقبلا بكليته على مرضاة ربه وعشق تكاليفه جل وعلا..

وجاء عن عبد الله بن زيد الخطمى - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ كان يقول فى دعائه: «اللهم ارزقنى حبك، وحب من ينفعنى حبه عندك، اللهم ما رزقتنى مما أحب فاجعله قوة لى فيما تحب، وما زويت عنى مما أحب فاجعله فراغًا فيما تحب»[٢].

إنه الحب الحقيقى الذى ملأ قلوب هذه الكوكبة من أنبياء الله جلّ وعلا عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأزكى التسليم.. ذلك الحب الذى جعلهم يعشقون التكاليف ما دامت هذه التكاليف من محبوبهم الأعظم من الله عز وجل جعل التكاليف الإلهية بالنسبة لهم تكريمًا وتشريفًا فأدوها بحب وعشق لأنها من الله عز وجل.

فإن الحب الحقيقى لله عز وجل يجعل صاحبه يجتهد فى البحث عن كل ما يحبه الله تعالى لكى يتفانى فيه ويؤديه على أكمل وجه مرضاة لله رب العالمين.

والقرآن الكريم والسنة المطهرة مملوءان بذكر ما يحبه الله عز وجل من عباده المؤمنين، وذكر ما يحبه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم:

كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٣].. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٤].

---

(١) جامع الإمام الترمذى.
(٢) جامع الترمذى.
(٣) آل عمران: ١٤٦.
(٤) آل عمران: ١٣٤.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾(١).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾(٢).

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٣).

وقوله تعالى فى ضد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾(٤).. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(٥).. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٦).

مما سبق يتضح أن محبة الله تعالى تعنى عشق التكاليف ما دامت هذه التكاليف من الله يتضح أن محبة الله عز وجل تعنى اعتبار التكاليف الصادرة من الله عز وجل لعباده ما هى إلا تشريف وتكريم من الله لعباده المؤمنين.

وإليك عزيزى القارئ هذه النماذج المضيئة من أنبياء الله تعالى فى عشقهم لمنهج الله وفى همتهم العالية فى محبة الله تعالى.

أولاً - الخليل إبراهيم وهمته فى محبة الله:

إنَّ الحديث عن أبى الحنفاء خليل الرحمن نبى الله «إبراهيم» عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم حديث محبب إلى النفوس العامرة بالإيمان.. إنه نموذج فريد وعجيب فى عشقه لله وفى ذوبانه فى حب الله رب العالمين. تلمح ذلك فى حياة هذا النبى الكريم من حين نشأته إلى أن لقى ربه عز وجل كانت حياته كلها لله.. حركاته وسكناته.. لفظاته وأفعاله.. نعم كان الخليل نموذجًا فريدًا لحب الله رب العالمين.

---

(١) البقرة: ٢٢٢ .
(٢) الصف: ٤ .
(٣) آل عمران: ٧٦ .
(٤) البقرة: ٢٠٥ .
(٥) لقمان: ١٨ .
(٦) آل عمران: ٥٧، ١٤٠ .

النبى الأمة:

فقد أثنى عليه ربه عز وجل فى محكم التنزيل فقال فى حقه:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾(١).. نعم كان الخليل عليه السلام أمة فى الخير.. كان أمة فى عشقه لمنهج الله.. كان أمة فى عشقه لتكاليف الله تعالى..

فكلنا يعلم أن الخليل عليه السلام نشأ بين قوم يعبدون الأصنام والكواكب من دون الله رب العالمين واستطاع هذا النبى الكريم بتأييد من ربه عز وجل أن يزيل تلك الشرور وأن يبطل ذاك الضلال فإن الله تعالى آتاه رشده فى صغره وابتعثه رسولًا واتخذه خليلًا فى كبره قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾(٢).

أى كان الخليل عليه السلام أهلًا لذلك.. وبدأ الخليل يدعو قومه إلى عبادة الله وحده.. وترك عبادة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر والتى لا تسمع ولا تبصر، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته فجادلهم بالحجة والحكمة وقدم لهم البرهان على بطلان ما هم عليه، فلما عجزوا أمام منطق الحق وأمام الحجة والبيان لجئوا إلى استخدام القوة وحكموا عليه بالإحراق فى النيران وشرعوا يجمعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبًا لحريق إبراهيم، وألقوه فى هذه النار التى أُعدت له وعندما ألقوه فى النار تجلى عشقه لتكاليف ربه فى قوله عندما ألقى فى النار وجُرِّد من ثيابه: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فعن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين أُلقِى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ

(١) سورة النحل آية: ١٢٠ .
(٢) سورة الأنبياء: ٥١ .

جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾(١).

وكان أمر الله عز وجل أسرع فى نجاة خليله إبراهيم عليه السلام: قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ . وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾(٢).

وسلب الله عز وجل خاصية الإحراق من النار ونجى خليله إبراهيم عليه السلام من مكر الماكرين ومن كيد الظالمين. وهجر إبراهيم قومه فى الله وهاجر من بين أظهرهم.

شوق.. وحنين.. وأمل:

ومع مرور الزمن اشتاق الخليل إلى الولد.. فقد كانت السيدة «سارة» رضى الله عنها - زوج الخليل عاقرًا لا يولد لها.. وحنَّ الخليل إلى الولد وتمناه.. واستجاب الله لخليله عليه السلام ورزقه «إسماعيل» عليه السلام من السيدة «هاجر» رضى الله عنها التى أُهديت إليه من ملك مصر. وبعد أن رزقه الله تعالى بابنه الوحيد الذى طالما اشتاق إليه وحن إليه يأتيه الأمر من الله تعالى أن يأخذ ابنه الوليد الرضيع وأمه السيدة هاجر ويتركهما فى مكان لا أنيس فيه ولا جليس.. فى مكان لا زرع فيه ولا ماء.. فى أرض الحجاز عند بيت الله الحرام.. وهنا نرى عشق التكاليف فى استجابة الخليل إبراهيم عليه السلام لأمر ربه عز وجل.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضى الله عنهم أجمعين - قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقًا لتعفى أثرها على «سارة» ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة «شجرة» فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذٍ أحد

(١) أخرجه الإمام البخارى.
(٢) سورة الأنبياء: ٦٩ - ٧٠.

وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاءً فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به إنس ولا شىء؟ قالت له ذلك مرارًا وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا.. ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾(١).

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال: يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادى ثم أتت المروة قامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه «اسكتى» تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضًا فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهى تفور بعدما تغرف. قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم، أو قال: «لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا معينًا». فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة فإن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإنَّ

(١) سورة إبراهيم: ٣٧.

الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كذا فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء فأرسلوا جريًّا أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبرهم بالماء فأقبلوا قال: وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: تأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم ولكن لا حق لكم فى الماء، قالوا: نعم.. وشب الغلام بينهم وتعلم العربية وتزوج منهم..»[١].

وهكذا استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء خليله إبراهيم عليه السلام وذلك بسبب عشقه لمنهج الله وبسبب عشقه لتكاليف الله وأوامره سبحانه وتعالى.

الخليل إبراهيم وقصة الذبيح:

وتمر الأيام وتتعاقب السنون، وإذا بالاختبار الشديد والابتلاء العظيم للخليل إبراهيم عليه السلام..

اسمع عزيزى القارئ إلى آيات الله البينات بمسامع قلبك لا بمسامع عقلك وتدبر عظم الأمر وعظم الاختبار، قال الله تعالى مخبرًا عن خليله إبراهيم عليه السلام:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ . فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[٢].

---

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه.
(٢) سورة الصافات: ٩٩: ١١٣.

هذا هو البلاء المبين والاختبار الشديد للخليل إبراهيم عليه السلام لما شبّ إسماعيل عليه السلام وصار يسعى فى مصالحه كأبيه فلما كان هذا رأى إبراهيم فى المنام أنه يؤمر بذبح ولده.

وفى الحديث عن ابن عباس - رضى الله عنهما - مرفوعًا: «رؤيا الأنبياء وحى» قاله عبيد بن عمير أيضًا[١].

وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله فى أن يذبح هذا الولد العزيز الذى جاءه على كبر وقد طعن فى السن بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه فى بلاد قفر وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع فامتثل أمر ربه فى ذلك وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلًا عليه فجعل الله لهما فرجًا ومخرجًا ورزقهما من حيث لا يحتسبان.

ثم لما أمر بعد ذلك كله بذبح ولده هذا الذى قد أفرده عن أمر ربه وهو بكره ووحيده الذى ليس له غيره أجاب ربه وامتثل.. إنه العشق لمنهج الله عز وجل.. امتثل الخليل لأمر ربه وسارع إلى طاعته ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرًا ويذبحه قهرًا قال ﴿يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى﴾ فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم فقال: ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين﴾ وهذا الجواب فى غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد، قال تعالى: ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ قيل أسلما أى استسلما لأمر الله وعزما على ذلك.. وقيل هذا من المقدم والمؤخر والمعنى «تله للجبين» أى ألقاه على وجهه. قيل: أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده فى حال ذبحه وهذا يوضح مدى عشق الخليل عليه السلام لمنهج الله ولتنفيذ أوامر الله تعالى.

قال السُدى وغيره: أمرَّ السكين على حلقه فلم تقطع..

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

ولو كان للسكين أن تتكلم لو كان لها ذلك، لقالت له: يا إبراهيم إننى بين أمرين: بين أمر الجليل وبين أمر الخليل.. فالخليل يقول: اقطعى والجليل يقول: لا تقطعى وأنا بأمر الجليل ولست بأمر الخليل! فعند ذلك نودى الخليل عليه السلام من ربه عز وجل:

﴿أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ أى قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك وَبذْلِكَ ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران وكما مالك مبذول للضيفان ولهذا قال تعالى: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ أى الاختبار الظاهر البين وقوله: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ أى وجعلنا فداء ذبح ولدك ما يسرناه لك من العوض عنه والمشهور عند الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن رآه مربوطًا بسمرة فى ثبير «وهو جبل بظاهر مكة».

إنه الحب الحقيقى! إنه العشق الحقيقى! يقدمه الخليل إبراهيم فى أسمى المعانى والصور يبرهن لنا على أن الله سبحانه أحبُّ إليه مما سواه ليس قولًا ولكنه عمل ليس بمجرد الكلام.. إن هذا العمل الذى قام به الخليل إبراهيم عليه السلام عمل لا يقوم به إلا من يحب الله حبًّا يفوق الدنيا وما فيها.. حبًّا أعلى من كل حب.. أيضًا كان حب إسماعيل - عليه السلام - فى هذا الموقف، وفى غيره من المواقف كان حبه لله عز وجل أكثر من حبه لحياته نفسها.. ومقابل هذا الحب كان الجزاء كبيرًا فإن الله عز وجل بدلًا من أن يميت الابن الوحيد لإبراهيم وهو إسماعيل عليه السلام فداه بكبش وجعل الأضحية سُنة فى أمة الحبيب محمد ﷺ ليس هذا فقط بل بشر خليله إبراهيم بغلام ثان وهو إسحاق عليه السلام!

إذن فالذى يقبل من الخلق على أوامر الحق الغيبية.. التى لا يعلم لها حكمة ثقة منه فى حكمة الله سبحانه يكون جزاؤه كبيرًا.

الخليل إبراهيم ورفع القواعد من البيت:

آية أخرى فى حياة خليل الرحمن تبرهن على عشقه لمنهج الله عز وجل

عندما أمره الله سبحانه برفع القواعد من البيت الحرام.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ...﴾(١).

لقد أشرك الله سبحانه وتعالى إسماعيل مع أبيه إبراهيم عليهما السلام فى رفع القواعد من البيت حتى يستطيع أن يعين والده فى البناء، فكأن القواعد لم يبنها إبراهيم إلا بعد أن كبر إسماعيل ليساعد أباه، وقد قال الله تعالى عن البيت الحرام: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾(٢).

ما هى الآيات البينات الموجودة فى البيت؟ لم يرد فى القرآن الكريم إلا قوله تعالى: ﴿مقام إبراهيم﴾ لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى هذا المقام وهو حجر كان يقف عليه الخليل عليه السلام وهو يرفع القواعد من البيت كان فى مقدور إبراهيم عليه السلام أن يرفع القواعد من البيت على قدر ارتفاع قامته، ولكن عشقه لمنهج الله ولتكليف الله جعله يأتى بحجر ليزيد ارتفاع قواعد البيت.

هذه كلها آيات تلفتنا إلى أننا لابد أن نأخذ تكليف الله ونؤديه بكمال وعشق فالتكليف من الله تعالى تكريم وتشريف للإنسان وليس عبئًا ثقيلًا.. فأنت عندما تستجيب لأمر الله تعالى وتسارع فى تنفيذه فهذا هو الحب والعشق لمنهج الله سبحانه وتعالى.. وهذا ما نتعلمه من حياة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام.. نتعلم عشق منهج الله وعشق التكاليف نتعلم أن التكاليف من الله تشريف وتكريم للإنسان وليست عبئًا ثقيلًا!!

ثانيًا - الحبيب محمد ﷺ وهمته فى محبة الله:

إنه خير من عبد ربه، كانت حياته كلها لله رب العالمين، حركاته.. سكناته.. غدوه.. ورواحه.. فرحه وحزنه.. عبادته ونسكه.. حبه

(١) سورة البقرة من الآية ١٢٧.
(٢) سورة آل عمران: ٩٦: ٩٧.

وبغضه.. ولاؤه وبراؤه لله رب العالمين فقد قال الله تعالى فى محكم التنزيل على لسان حبيبه ومصطفاه الصادق المصدوق:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

تجسد الإسلام بكل معانيه وبكل كمالاته فى شخصية الرسول الكريم ﷺ فكان حبيب الله ومصطفاه وخير من مشى على الأرض.

أَلِفَ النسك والعبادة والخَلْ ... وة طفلًا وهكذا النجباء
وإذا حلت الهداية قلبًا ... نشطت فى العبادة الأعضاء

وقد كان عبد الله بن رواحة - رضى الله عنه وأرضاه - ينشد:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق مكنون من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع(٢)

كان الحبيب محمد ﷺ بشرًا كاملًا وكانت حياته متسقة مع سنن الله سبحانه وتعالى.. كان الحبيب محمد ﷺ قوة من قوى الخير.. كان صلة بين الخلق والحق الذى يصح به وجودهم.. والنور الذى يبصرون به غايتهم.. فمن عرف الحق فى حياته وكان له نور يمشى به فى الناس فقد عرف محمدًا ﷺ واستظل بلوائه وإن لم يرَ شبحه ويعش معه. نموذج فريد للإنسان الكامل إنه الحبيب محمد ﷺ، الإنسان الكامل فى حب الله وفى الاستسلام والانقياد لله رب العالمين.. قبل بعثته ﷺ كان يهجر مكة كل عام ليقضى شهر رمضان فى غار «حراء» وهو غار على مسافة بضعة أميال من القرية الصاخبة فى رأس جبل من هذه الجبال المشرفة على مكة والتى ينقطع عندها لغو الناس وحديثهم الباطل، ويبدأ السكون الشامل المستغرق.. فى هذه القمة السامقة المنزوية

(١) سورة الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.
(٢) فقه السيرة - محمد الغزالى ص٤٨، ٤٩.

كان محمد ﷺ يأخذ زاد الليالى الطوال ثم ينقطع عن العالمين متجهًا بفؤاده المشوق إلى رب العالمين!

إنه الحب والعشق لجلال الله رب العالمين، وقد كان ﷺ يقوم الليل حتى تفطرت قدماه من طول القيام بين يدى الله رب العالمين وقد جُعلت قرة عينه ﷺ فى الصلاة؛ فقد روى عنه ﷺ أنه قال: «وجعلت قرة عينى فى الصلاة»(١).

وكان ﷺ يقول لمؤذنه بلال - رضى الله عنه وأرضاه -: «يا بلال، أقم الصلاة أرحنا بها»(٢).

وعن حذيفة - رضى الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلى»(٣).

فكانت سعادته وفرحته ﷺ عندما يناجى ربه ومولاه.. فحياته كلها كانت لله وبالله..

لذا هيا بنا عزيزى القارئ نقف أمام موقف من مواقفه المشرفة يوضح هذا الحب الشديد لله ولدين الله وللإسلام والمسلمين وللدعوة الإسلامية، ويبين حرصه الشديد على إخراج العباد من الظلمات إلى النور، يبين بعض ما تحمَّله ﷺ فى ذات الله عز وجل وذلك الموقف هو «خروجه ﷺ إلى الطائف إلى أهل ثقيف يلتمس نصرتهم فهيا بنا نعيش هذا الموقف.

الحبيب محمد ﷺ فى الطائف:

عندما توالت المحن والشدائد فى مكة وأعرض أهلها عن دعوة الحق.. ذهب الرسول ﷺ إلى الطائف حيث تقطن «ثقيف» وهى تبعد عن مكة نحو

(١) رواه النسائى.
(٢) رواه أبو داود - كتاب الأدب ٤٥.
(٣) رواه أبو داود.

الخمسين ميلًا، سارها الحبيب محمد ﷺ على قدميه ذهابًا وإيابًا، فلما انتهى إليها قصد إلى نفر من رجالاتها الذين ينتهى إليهم أمرها ثم كلمهم فى الإسلام ودعاهم إلى الله، فردوه جميعًا ردًّا منكرًا وأغلظوا له الجواب، ومكث عشرة أيام يتردد على منازلهم دون جدوى.. فلما يئس الرسول ﷺ من خيرهم قال لهم: إذا أبيتم فاكتموا علىَّ ذلك - كراهية أن يبلغ أهل مكة فتزداد عداوتهم وشماتتهم - لكنَّ القوم كانوا أخس مما ينتظر، قالوا له: اخرج من بلدنا، وحرّشوا عليه الصبيان والرعاع فوقفوا له صفين يرمونه بالحجارة و «زيد بن حارثة» يحاول - عبثًا - الدفاع عنه حتى شجّ فى ذلك رأسه.

وأصيب الرسول ﷺ فى قدميه فسالت منهما الدماء، واضطره المطاردون أن يلجأ إلى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة حيث جلس فى ظل كرمة يلتمس الراحة والأمن.

وكان أصحاب البستان فيه، فصرفوا الأوباش عنه، واستوحش الرسول ﷺ لهذا الحاضر المرير، وثابت إلى نفسه ذكريات الأيام التى عاناها مع أهل مكة إنه يجرجر وراءه سلسلة ثقيلة من المآسى المتلاحقة فهتف يقول:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى.. وقلة حيلتى.. وهوانى على الناس أنت أرحم الراحمين.. أنت رب المستضعفين.. وأنت ربى.. إلى مَنْ تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟! إن لم يكن بك غضبٌ علىَّ فلا أبالى.. غير أن عافيتك هى أوسع لى..!! أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات.. وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة.. أن يحلّ علىَّ غضبك.. أو أن ينزل بى سخطك.. لك العتبى حتى ترضى.. ولا حول ولا قوة إلا بك..»[1].

وتحركت عاطفة القرابة فى قلوب ابنىْ ربيعة فدعوا غلامًا لهما نصرانيًّا يدعى «عداسًا» وقالا له: خذ قطفًا من العنب واذهب به إلى الرجل.. فلما

(١) هذا الدعاء ذكره ابن إسحاق فى سيرته بدون سند.

وضعه بين يدى رسول الله ﷺ مدَّ يده إليه قائلًا: باسم الله ثم أكل.

فقال «عداس»: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة! فقال له النبى ﷺ من أى البلاد أنت؟ قال: أنا نصرانى من «نيْنوى» فقال الحبيب ﷺ: أمن قرية الرجل الصالح «يونس بن متى»؟ قال له: وما يدريك ما «يونس»؟ قال رسول الله ﷺ: ذلك أخى كان نبيًا وأنا نبىٌ.

فأكب «عداس» على يدى رسول الله ﷺ ورجليه يقبلهما فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك! فلما جاء «عداس» قالا له: ويحك ما هذا؟ قال: ما فى الأرض خير من هذا الرجل»[1].

فحاول الرجلان توهين أمر الحبيب ﷺ كأنما عزّ عليهما أن يخرج الحبيب ﷺ من الطائف بأى كسب!!

أرأيتم نموذجًا فى حب الله تعالى وعشق منهجه مثل هذا المحمد ﷺ؟

الله عظّم قدره تعظيمًا ... وعليه فضل الله كان عظيما
صلى عليه مع الملائك ربه ... صلوا عليه وسلموا تسليما
فقد اصطفاه من البرية كلها ... ورعاه من فجر الحياة يتيما
آتاه معجزة الكتاب وما تلا ... كتبًا ولا خطت يداه نظيما
وبرؤية الملكوت نال محمدٌ ... من ربه التأديب والتعليما
بمحمدٍ تمت هداية ربه ... وبه أتم الدين والتقويما
هو خاتم للأنبياء جميعهم ... آتاه من غر الصفات عميما
صلوا عليه وسلموا تسليما ... صلوا عليه وسلموا تسليما

اللهم صل وسلم وزد وبارك على سيد ولد آدم ولا فخر وعلى صاحب لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وعلى أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر وعلى صاحب الشفاعة يوم العرض ولا فخر.

---

(١) ابن إسحاق (سيرة ابن هشام) بسند صحيح، وكتاب فقه السيرة محمد الغزالى ص١٣٤، ١٣٥.

ثانيًا - الهمة العالية فى حب رسول الله ﷺ:

إنّ محبة رسول الله ﷺ أمر لا اختلاف فيه.. وقضية مسلم بها.. فالله تبارك وتعالى قد جعل طاعته من طاعته فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(١).

بل جعل الله تبارك وتعالى مقامه سبحانه من مقام حبيبه ﷺ حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾(٢).

مع ذلك يخبرنا الحبيب ﷺ بأن المحبة إذا كانت لله دون محبته فهى مردودة وذلك فى قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾(٣).

وهذا هو الحبيب محمد ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(٤).

من أجل ذلك نلاحظ أن حب الرسول ﷺ قد تغلغل فى أحشاء أصحابه - رضى الله عنهم أجمعين - وقد تجلى هذا الحب فى عدة مواقف جليلة فهيا بنا عزيزى القارئ نعيش فى أدب وخشوع مع بعض هذه المواقف المشرفة للحب الخالص لرسول الإنسانية ومعلم البشرية الأول ﷺ.

خبَيْب بن عدى وزيد بن الدثنة:

يتجلى حب الرسول الكريم ﷺ فى قصة «خبَيب بن عدى» رضى الله عنه، و «زيد بن الدثنة» رضى الله عنه، فى وقعة «الرجيع» وقد قال أبو سفيان بن حرب «لزيد بن الدثنة» حين قدم ليقتله: «أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدًا عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه، وأنك فى أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا الآن فى مكانه الذى هو فيه، تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى

(١) سورة النساء: ٨٠ .
(٢) سورة الفتح: ١٠ .
(٣) سورة آل عمران: ٣١ .
(٤) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه .

فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا»[١].

حب من نوع عجيب:

قد أصيب فى غزوة أحد زوج امرأة من بنى دينار وأخوها وأبوها فلما نعوا لها قالت: «فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان، وهو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه. قال سعد بن أبى وقاص: فأشير لها إليه فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل»[٢].

أهل المدينة واستقبال الرسول ﷺ:

ولعل الصورة التى استقبل بها أهل المدينة رسول الله ﷺ تجل عن الوصف وتدلنا على مدى المحبة الخالصة الصادقة التى كانت تفيض بها أفئدتهم وتنطق بها شفاههم رجالًا ونساءً وأطفالًا.. ولقد علمنا أنهم كانوا يخرجون كل يوم إلى ظاهر المدينة ينتظرون تحت لفح الشمس المحرقة وصول صاحب دولتهم إليهم حتى إذا أدبر النهار عادوا أدراجهم ليعودوا إلى الانتظار حتى صباح اليوم التالى حتى طلع عليهم بدر الهدى فجاشت العواطف فى صدورهم وظهر الحنين فى قلوبهم فانطلقت ألسنتهم تهتف بالقصائد فرحًا لمرآه وحبًا للقاه ﷺ ولقد بادلهم ﷺ نفس الشعور والمحبة بقوله: «أتحبوننى»؟ قلنا: نعم، قال: «والله إن قلبى ليحبكم».

فجعلوا يتسابقون إلى رسول الله ﷺ راجين أن ينزل عندهم فى العدد والعدة والمنعة، فقال: وقد أرخى زمام ناقته «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» وتلك معجزة للنبى ﷺ أراد بها الله تبارك وتعالى أن يطيب بها نفوس أصحابه، وانطلقت الناقة حتى أتت إلى دار «مالك بن النجار» فبركت الناقة فى موضع المسجد النبوى ثم قامت وسارت غير بعيد ثم التفتت يمنة ويسرة وزمامها طوع أمرها ثم

(١) سيرة ابن هشام.
(٢) سيرة ابن هشام، والجلل يكون من القليل ومن الكثير وهو ههنا من القليل أى صغيرة.

رجعت مبركها الأول فبركت فيه ثم تحركت ورغت واستقرت على الأرض. ونزل رسول الله ﷺ عنها وقال: «هذا المنزل إن شاء الله».

الرسول ﷺ فى دار أبى أيوب الأنصارى:

بعد أن نزل الرسول الكريم عن الناقة أتاه أبو أيوب - خالد بن زيد بن النجار الأنصارى الخزرجى - وقال: «إن منزلى أقرب المنازل فأذن لى أن أنقل رحلك قال: نعم فنقل وأناخ الناقة فى منزله.

وانظر عزيزى القارئ - رحمنى الله وإياك - إلى الحب الصادق والهمة العالية فى حب الرسول الكريم ﷺ يتجلى فى موقف هذا الصحابى الجليل - رضى الله عنه - ونزل رسول الله ﷺ ونزل مع الرسول الكريم ﷺ حب رسول الله ﷺ الصحابى الجليل «زيد بن حارثة» نزلا فى الطابق السفلى ولكن منع الحياء أبا أيوب من أن يعلو رسول الله ﷺ فى السكن ولعل مما تحرّج منه أبو أيوب أكثر لرسول الله ﷺ أنه قد انكسرت له جرة بها ماء، قال فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها نجفف الماء خوفًا من أن يقطر على رسول الله ﷺ شىء يؤذيه، قال: فنزلت إلى رسول الله ﷺ أستعطفه وما زلت به حتى انتقل إلى العلوى..

وانظر أخى الكريم وانظرى أختى الكريمة إلى ما كان من أبى أيوب وقت عشاء رسول الله ﷺ ليتبين مدى الحب الخالص لرسول الله ﷺ.

قال أبو أيوب - رضى الله عنه وأرضاه -: «كنا نضع له العشاء ثم نبعث به إليه فإدا رد علينا فَضْلَه تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغى بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلًا وثومًا فرده رسول الله ﷺ ولم أر ليده فيه أثرًا فجئته فزعًا فقلت: يا رسول الله بأبى أنت وأمى رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك وكنت حينما ترد علينا فضل طعامك أتيمم أنا وأم أيوب موضع يدك نبغى بذلك البركة، فقال ﷺ: إنى وجدت فيه ريح هذه

الشجرة وأنا رجل أناجى فأما أنتم فكلوه، قال: فأكلناه، ثم لم نضع له تلك الشجرة»[١].

تلك صورة مشرقة من حياة أصحاب الرسول الكريم ﷺ للمحبة الخالصة الصادقة.

وهذا هو عملاق الإسلام والمسلمين «الفاروق عمر بن الخطاب» رضى الله عنه وأرضاه يوضح لنا أساس هذا الحب وأنه بمعنى الاتباع للرسول الكريم وذلك عندما وقف أمام الحجر الأسود وقبله ثم قال: «أيها الحجر إنى أعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك أبدًا».

هذا هو أساس الحب الصادق لرسول الإنسانية ومعلم البشرية الأول ﷺ فالهمة العالية في محبة رسول الله ﷺ تعنى الاتباع.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٢].

وعن أنس - رضى الله عنه وأرضاه - أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[٣].

وها هو الحبيب ﷺ يحذر من الابتداع فيقول:

«مَن أحدثَ فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[٤] أى مردود عليه وغير مقبول.

وقال أيضًا: «إياكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كلَّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[٥].

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص١١٦ .
(٢) سورة الحشر: ٧ .
(٣) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه .
(٤) متفق عليه .
(٥) رواه أحمد وأبو داود نقلًا عن مشكاة المصابيح .

ثالثًا – الهمة العالية فى محبة الخلق:

من أعظم الكنوز التى يملكها الإنسان الحب فى الله سبحانه وتعالى.. والتحاب فى الله والأخوة الإيمانية من أعظم القربات. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[١] أى مودة ومحبة فى قلوب أوليائه ولولا فضل هذه المودة ما وعد الله بها عباده المؤمنين.

فعن أبى هريرة – رضى الله عنه وأرضاه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يوم القيامة يقول: أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى»[٢].

الله أكبر عزيزى القارئ إنه والله الفوز العظيم والنجاح الذى ليس له مثيل فى مثل هذا اليوم المهيب يوم القيامة.. يوم الحسرة والندامة.. يوم العرق.. يوم الغرق.. يوم تبلى السرائر.. يوم تهتك الأستار.. وتكشف الأسرار.. فى هذا اليوم العصيب المهيب يصدر النداء للمتحابين فى الله لكى يستظلوا تحت عرش الرحمن فيمر عليهم هذا اليوم العصيب كصلاة ظهر أو عصر كما صح عن رسول الإنسانية ومعلم البشرية ﷺ. وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أيضًا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل.. وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى.. ورجلٌ قلبه معلق بالمساجد.. ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه.. ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله.. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.. ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»[٣].

يا لها من بشارة تقرُّ بها أعين المتحابين فى الله وتنشرح بها صدورهم ويزداد

---

(١) سورة مريم: ٩٦.
(٢) رواه الإمام مسلم فى صحيحه والإمام مالك فى الموطأ.
(٣) أخرجه البخارى ومسلم والنسائى.

بها حبهم لربهم عز وجل وفى ربهم عز وجل. . تبشرهم بظل عرش الرحمن جلّ وعلا والحب فى الله عز وجل سبب من أعظم الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى لعبده.

فعن أبى إدريس الخولانى أنه قال: دخلت مسجد دمشق فإذا فتى برّاق الثنايا، وإذا الناس معه إذا اختلفوا فى شىء أسندوه إليه وصدروا عن رأيه، فسألت عنه فقيل: هذا معاذ بن جبل، فلما كان الغد هجَّرت فوجدُته قد سبقنى بالتهجير ووجدته يصلى، قال: فانتظرته حتى قضى صلاته ثم جئته من قبل وجهه فسلمت عليه ثم قلت: والله لأحبك لله. . فقال: آلله! فقلت: آلله، فقال: آلله! فقلت: آلله وأخذ بحبوة ردائى فجذبنى إليه وقال:

أبشر فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: وجبت محبتى للمتحابين فىَّ، والمتجالسين فىَّ، والمتزاورين فىَّ، والمتباذلين فىَّ»(١).

وهذه هى الغاية التى يسعى إليها كل إنسان أن يحظى بمحبة الله جلّ وعلا.

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ:

«أنَّ رجلًا زار أخًا له فى قرية أخرى، فأرصد الله له ملكًا على مدرجته فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أخًا لى فى هذه القرية، قال: فهل له عليك من نعمة تَرُبُّهَا؟ قال: لا إلا أنى أحبه فى الله عز وجل، قال: فإنى رسول الله إليك: «إنَّ الله أحبك كما أحببته فيه»(٢).

وانظر أخى الحبيب إلى هذه المنزلة الرفيعة التى يحظى بها هؤلاء المتحابون فى الله عز وجل وإلى مكانتهم عند ربهم عز وجل فى دار الكرامة من خلال هذا الحديث الشريف.

---

(١) رواه مالك وإسناده صحيح ج٢ ص٩٥٣ / ٩٥٤ .

(٢) رواه مسلم ج١٦ ص١٢٣ - ١٢٤ . . قوله: (فأرصد الله على مدرجته) معنى أرصده أقعده يرقبه المدرجة هى الطريق قوله (عليك من نعمة تربها) أى تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك .

فعن أبى مالك الأشعرى - رضى الله عنه - قال: كنت عند النبى ﷺ فنزلت عليه هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] قال: فنحن نسأله إذ قال: «إن لله عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة» قال: وفى ناحية القوم أعرابى فجثا على ركبتيه ورمى بيديه، ثم قال: حدثنا يا رسول الله عنهم من هم؟ قال: فرأيت فى وجه النبى ﷺ البِشرَ فقال النبى ﷺ: «هم عباد من عباد الله من بلدان شتى، وقبائل شتى من شعوب القبائل لم تكن بينهم أرحام يتواصلون بها، ولا دنيا يتباذلون بها، يتحابون بروح الله، يجعل الله وجوههم نورًا ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قُدّام العرش، يفزع الناس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون»(١).

يا لها من مكانة تتطلع إليها النفوس العامرة بالإيمان وتصبو إليها العقول النيرة.

والمحبة فى الله هى زاد المؤمن إلى الجنة.. إلى النعيم المقيم.

فعن أنس - رضى الله عنه - أن رجلًا سأل النبى ﷺ فقال: يا نبى الله متى الساعة؟ فقال: ما أعددت لها؟ فقال: أحبُّ الله ورسوله، فقال له: «المرء مع من أحب».

قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء كما فرحوا يومئذٍ»(٢).

والحب فى الله عز وجل سبب من أعظم الأسباب الجالبة لتذوق حلاوة الإيمان وجماله.

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «من سره أن يجد طعم الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا لله»(٣).

(١) رواه أحمد ج٥ / ٣٤١، ٣٤٣ والبغوى فى شرح السنة ج١٣ ص٥١ .
(٢) رواه البخارى ج١٠ ص٥٥٣ الأدب ورواه مسلم ج١٦ ص١٨٥، ١٨٦ .
(٣) رواه أحمد ج٢ ص٢٩٨ والحاكم: ١/ ٤ وحسنه الألبانى فى الجامع رقم ٦١٦٤ .

فهذه باقة طيبة طاهرة من الأحاديث النبوية فى ثواب المتحابين بعد أن تقرأها قف معها وقفة المتدبر المتأمل وجاهد نفسك على العمل بما جاء فيها ودعوة الناس للعمل بها لتحظى بالقرب وتنال السعادة فى الدارين: الدنيا والآخرة.

أخى الحبيب.. أختى الحبيبة بعد أن تحدثنا عن منزلة الحب فى الله وعن فضل الحب فى الله هيا بنا نعيش مع الهمة العالية فى الحب فى الله هذا الحب الذى عرفه بعض أهل العلم وهو: يحيى بن معاذ الرازى قال:

«من علامات الحب فى الله ألا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء»(١).

نعم فإن من علامات الحب فى الله ألا يزيد بالمودة ولا ينقص بالجفاء وذلك لأنه قد وصل إلى الذروة وإلى القمة لأنه فى الله عز وجل ليس من أجل المنافع والمصالح الدنيوية الزائلة.

الآن هيا بنا نطوف مع نماذج مضيئة من سلفنا الصالح نتعلم منهم كيف تكون الهمة فى الحب.

عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع:

عن أنس - رضى الله عنه - قال: قدم علينا «عبد الرحمن بن عوف» وآخى النبى ﷺ بينه وبين «سعد بن الربيع» - وكان كثير المال - فقال سعد: قد علمت الأنصار أنى أكثرها مالًا، سأقسم مالى بينى وبينك شطرين، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها حتى إذا حلت تزوجتها، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك - وزاد فى رواية أخرى: ومالك - أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع - قال أنس: فلم يرجع يومئذٍ إلا ومعه فضلٌ من أَقِطٍ وسمن. ثم تابع الغدوَّ. ثم جاء يومًا وبه أثر صفرَة، فقال النبى ﷺ: مَهْيَم؟ قال: تزوجتُ. قال: كم سقت إليها؟ قال: نواةً من ذهب - أو

(١) طبقات الشافعية ٦/ ٥١ نقلًا عن نفائس الحُلة ص١٦ .

وزن نواة من ذهب - فقال: أولم ولو بشاة. . زاد الإمام أحمد: قال عبد الرحمن: فلقد رأيتنى ولو رفعت حجرًا لرجوت أن أصيب ذهبًا وفضة «كناية عن كثرة غناه»(١).

هذه الصورة لو لم تقع وحدثنا عنها التاريخ الإسلامى لظنها الإنسان من عالم الخيال والأوهام.

هذا هو الحب:

ومن الصور المشرقة للهمة العالية فى الحب والإخاء ما كان بين «أبى عبيد القاسم بن سلام» والإمام الجليل «أحمد بن حنبل» رحمهما الله.

قال أبو عبيد: زرت أحمد بن حنبل فى بيته فأجلسنى فى صدر داره وجلس دونى فقلت: يا أبا عبد الله أليس يقال: صاحب البيت أحق بصدر بيته؟

فقال: نعم! يَقعُد ويُقْعِد من يريد. قال: فقلت فى نفسى: خذ إليك يا أبا عبيد فائدة.

قال: ثم قلت له: يا أبا عبد الله لو كنت آتيك على نحو ما تستحق لأتيتك كل يوم، فقال: لا تقل، إن لى إخوانًا لا ألقاهم إلا فى كل سنة مرة، أنا أوثق بمودتهم ممن ألقى كل يوم. قال: فقلت: هذه أخرى يا أبا عبيد.

فلما أردت أن أقوم قام معى فقلت: لا تفعل يا أبا عبد الله.

فقال: قال الشعبى: من تمام زيارة الزائر أن تمشى معه إلى باب الدار، وتأخذ بركابه»(٢).

هذا هو الحب فى أسمى معانيه وأجمل صوره ذلك الحب الصادق الخالص لوجه الله الكريم.

ومن سمات الحب فى الله أنه يحمل الأحباب دائمًا على حسن الظن فمن

(١) أخرجه البخارى ج٧ ص١٤٠ وكلمة أقط تعنى (الجبن) . . وكلمة مَهْيَم بمعنى: كيف حالك؟ وقوله: (أثر صفرة) أى زينة ورائحة طيبة .
(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى ص١١٣ نقلًا عن نفائس الحلة ص٣٢، ٣٣ .

مناقب الإمام الجليل «الإمام الشافعى» رضى الله عنه ما قاله أحد تلامذته عنه الربيع بن سليمان قال: «دخلت على الشافعى وهو مريض فقلت له: قوى الله ضعفك» فقال: لو قوى ضعفى لقتلنى. فقلت: والله ما أردت إلا الخير. قال: أعلم أنك لو شتمتنى لم ترد إلا الخير»[١].

هذا هو الحب الحقيقى.. هذا هو الحب الصادق.. هذا هو الحب الخالص لوجه الله الكريم.. هذا هو الحب الدافع لكل خير.

من هم الأصدقاء؟!

بعد أن وقفنا مع هذه الصور المشرقة للإخاء وللحب فى الله لنا أن نتساءل من هم الأصدقاء؟ ومن يختار للمحبة والصحبة؟

وإليك عزيزى القارئ الإجابة على هذه الأسئلة من أفواه أهل العلم والخبرة.

قال القرافى: ما كل أحدٍ يستحق أن يعاشر ولا يصاحب ولا يسارر»[٢].

وقال علقمة: اصحب من إن صحبته زانك، وإن أصابتك خصاصة عانك.. وإن قلت سدد مقالك.. وإن رأى منك حسنة عدَّها.. وإن بدت منك ثلمةٌ سدَّها.. وإن سألته أعطاك.. وإذا نزلت بك مهمة واساك.. وأدناهم من لا تأتيك منه البوائق.. ولا تختلف عليك منه الطرائق».

نعم هؤلاء هم الأصدقاء حقًّا.. نعم هؤلاء هم الرفقاء صدقًا..

وقد قال الإمام على رضى الله عنه وأرضاه:

إنَّ أخاك الصِّدقَ من كان معك ... ومن يضُرُّ نفسه ليَنْفَعَكْ
ومَنْ إذَا رَيْب الزَّمَان صَدَعك ... شَتَّتَ فيكَ نفسه ليجمعك

---

(١) مناقب الشافعى للرازى ص٢٧٤ نقلًا عن نفائس الحُلة .
(٢) نقلًا عن كتاب زلال قراح الألباء فى مهيع حكماء الأدباء ص٦ لمحمد بن عبد الله بن هاشم مكتبة المعرفة .

حقًا هذا هو الصاحب.. حقًا هذا هو الصديق.. حقًا هذا هو الرفيق..

ولله در القائل:

الناسُ شَتَّى إذا ما أنتَ ذُقتَهُمُ ... لا يستوُون كما لا يستوى الشجرُ
هـذا لـهُ ثَـمَـر حُـلوٌ مـذاقـتُـه ... وذاك لـيس لـه طـعـمٌ ولا ثَـمَـرُ

نعم أخى الحبيب لأن الناس فريقان: طالب دنيا حريص عليها وهذا صحبته سم قاتل لأن مجالسته تحرك الحرص.. وطالب آخرة حريص عليها وهذا صحبته فلاح ونجاح فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا ويستحب صحبة الراغبين فى الآخرة.

صداقة كاذبة:

حكى ابن حبان البستى عن محمد بن حسين قال:

«كان أعرابى بالكوفة وكان له صديق يظهر له مودة ونصيحة، فاتخذه الأعرابى من عدده للشدائد، إذ حزب الأعرابى أمر، فأتاه فوجده بعيدًا مما كان يظهر للأعرابى فأنشأ يقول:

إذا كـان وُدُّ الـمـرءِ لـيـس بـزائـدٍ ... على «مرحبًا» أوْ «كيف أنت» وحالُكَا
ولـم يـكُ إلا كـاشِـرًا أو مـحـدّثًـا ... فـأُفٌ لِوُدٍّ لـيـس إلا كـذلـكَـا
لـسـانُـك مـعـسـولٌ ونـفـسُـك بـشـةٌ ... وعند الثريا من صديقك مالُكَا
وأنـت إذا هـمَّـتْ يـمـيـنُـكَ مـرَّةً ... لتفعَلَ خيرًا قَاتَلَتها شمَالُكَا[1]

هذه صورة للصداقة الكاذبة وهى أن تفقد صديقك عند الحاجة والشدة ولذلك رحم الله الإمام الشافعى إذ يقول:

إذا الـمـرءُ لا يـرعـاكَ إلا تـكَـلُّـفًـا ... فـدعـهُ ولا تُـكـثِـر عـلـيـه الـتـأسُّـفَـا
ففى الناس أبدالٌ وفى الَترْكِ راحةٌ ... وفى القلبِ صبرٌ للحبيب ولو جَفَا
فـمـا كـلُّ مـن تـهـواهُ يـهـواكَ قـلبُـهُ ... ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لـم يـكـن صـفـو الـوداد طـبـيـعـة ... فـلا خـيـر فـى ود يـجـىء تـكـلـفـا

(١) روضة العقلاء: ص ١٠٥ .

ولا خيرَ فى خِلٍّ يخُونُ خَلِيلَهُ ... ويلقاهُ من بعد المودَّةِ بالجفَا
ويُنكرُ عيشًا قد تقادم عهدُهُ ... ويُظهِرُ سِرًّا كان بالأمس قد خفا
سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن بِهَا ... صديقٌ صدُوقٌ صادقُ الوعدُ منصِفَا[1]

وأختم هذا الباب بحديث النبى ﷺ:

قال ﷺ: «المرءُ على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[2].

ومن أراد أن يستزيد فى هذا المجال الخصب ألا وهو الإخاء والحب فى الله فليرجع إلى كتاب «الحب فى الله وحقوق الأخوة» للشيخ أحمد فريد دار العقيدة للتراث.

* * *

(١) ديوان الشافعى ص٩٤ مكتبة الكليات الأزهرية.
(٢) رواه أبو داود (٤٨١٢) والترمذى (٢٣٧٩) وأحمد (٢/ ٣٠٣) والبغوى شرح السنة (١٣/ ٧٠).

الباب الثالث
الهمة فى التقوى

أخى الحبيب.. أختى الحبيبة إن الناظر لهذه الحياة نظرة تأمل وتدبر يرى أنها: «ألم يخفيه أمل.. وأمل يحققه عمل.. وعمل ينهيه أجل.. وبعد ذلك يجزى كل امرئٍ بما فعل.. إن كان خيرًا حصد الكرامة.. وإن كان شرًا حصد الندامة! وقد قال أهل العلم والمعرفة عن الحياة: «الحياة أولها بكاء.. وأوسطها عناء.. وآخرها فناء!»

ولله در القائل:

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ... ونال من الدنيا سرورًا وأنعما
كبانٍ بنى بنيان ... فلما استوى ما قد بناه تهدما

وقد قال العلماء: «إن الموت يعمُنا.. والقبر يضمنا.. والقيامة تجمعنا.. والجبار يفصل بيننا» فالحياة عزيزى القارئ إلى زوال.. وإلى فناء.. وكل ما كتب له أن يولد كتب عليه أن يموت.. فالموت حقيقة لا مراء فيها ولا جدال.. ولكى تتعرف أخى الحبيب على حقيقة الدنيا اسمع بمسامع قلبك إلى الإمام الجليل «على بن أبى طالب» رضى الله عنه وأرضاه وهو يصف لنا الدنيا..

الإمام علىّ بن أبى طالب ووصف الدنيا:

دخل ضرار بن ضمرة الكنانى - رضى الله عنه - على معاوية - رضى الله عنه - فقال له: صِفْ لى عليًا وكان ذلك بعد مقتله رضى الله عنه، فقال ضرار:

أو تعفينى يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفيك.

فقال أما إذ لا بُدَّ من وصفه فكان والله بعيد المدى.. شديد القوى.. يقول فصلًا.. ويحكم عدلًا.. يتفجر العلم من جوانبه.. وتنطق الحكمة من نواحيه.. يستوحش من الدنيا وزهرتها.. ويستأنس بالليل وظلمته.. كان والله غزير العبرة.. طويل الفكرة.. يقلب كفه.. ويخاطب نفسه.. يعجبه من اللباس ما قصر.. ومن الطعام ما جشب.. كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتيناه.. ويجيبنا إذا سألناه.. وكان مع تقربه إلينا وقربه منا.. لا نكلمه هيبة له.. فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم.. يعظِّم أهل الدين.. ويحب المساكين.. ولا يطمع القوى فى ظلمه.. ولا ييئس الضعيف من عدله.. فأشهد أنى قد رأيته فى بعض مواقفه.. وقد أرخى الليل سدوله.. وغارت نجومه.. يميل فى محرابه.. قابضًا على لحيته.. يتململ تململ السليم.. ويبكى بكاء الحزين.. فكأنى أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا يتضرع إليه ثم يقول للدنيا:

«يا دنيا غرى غيرى.. يا دنيا غرى غيرى.. أليَّ تغررت؟ أم إليَّ تشوفت؟ هيهات هيهات غرى غيرى قد بَتَتُّكِ «أى طلقتك» ثلاثًا لا رجعة فيها فعمرك قصير.. ومجلسك حقير.. وخطرك يسير.. آه آه من قلة الزاد.. وبُعد السفر ووحشة الطريق.. فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يمللها.. وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء.. فقال كذا كان أبو الحسن رحمه الله.. كيف وَجدُك عليه يا ضرار؟

قال: وَجْدُ من ذُبح واحدها فى حجرها لا ترقأ دمعتها ولا يسكن حزنها.. ثم قام فخرج»[1].

وروى أن رجلًا من المنشغلين بأمر الدنيا.. الراغبين فيها.. الطالبين لها.. ظل يجمع الأراضى والبنيان.. وذات يوم اشترى دارًا وأراد أن يكتب لها العقد فقيل له: اذهب إلى الإمام «على بن أبى طالب» رضى الله عنه.. فذهب إليه

(١) أخرجه ابن عبد البر وأبو نعيم فى الحلية .

وقال له: يا إمام جئتك كى تكتب لى عقد دار.. فنظر الإمام إليه فعلم بحاله أى علم أنه من أهل الدنيا فلم يسأله عن مكان الدار.. ولم يسأله عن حدودها.. ولم يسأله عن وصفها ولكنه أمسك بالريشة وكتب فى الصحيفة يصف له الدنيا قال: «بسم الله الرحمن الرحيم.. اشترى ميتٌ من ميتٍ دارًا.. الدار فى سكة النادمين.. وطريق المذنبين.. الدار لها حدود أربعة:

حدها الأول إلى الموت.. وحدها الثانى إلى القبر.. وحدها الثالث إلى الحساب.. وحدها الرابع إما إلى جنة وإما إلى نار!

فتعجب الرجل وقال: يا إمام عجبًا لك جئتك تكتب لى عقد دار لا عقد مقبرة!

فتبسم الإمام علىٌ قائلًا:

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التى كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنها ... وإن بناها بشر خاب بانيها
أين الملوك التى كانت مسلطنة ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها!
أموالنا لذوى الميراث نجمعها ... وديارنا لخراب الدهر نبنيها
كم من مدائن فى الآفاق قد بنيت ... أمست خرابًا وأفنى الموت أهليها
لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدًا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

فلما استمع الرجل إلى هذه الكلمات رق قلبه وقال فى عجالة: يا إمام أشهدك بأن دارى هذه صدقة لبيت مال المسلمين. لماذا؟ لأنه علم حقيقة الدنيا علم أنها إلى زوال.. علم أنها إلى فناء.. علم أنها إذا حلت أوحلت.. علم أنها إذا كست أوكست.. هذه هى الدنيا التى يتنافس عليها المتنافسون.. ولذلك قال الصحابى الجليل ذلكم الباحث عن الحقيقة سيدنا «سلمان الفارسى» رضى الله عنه وعن صحابة نبينا أجمعين:

عجبت لثلاثة وبكيت لثلاثة:

عجبت لغافلٍ ليس بمغفولٍ عنه!

وعجبت لمؤمل فى الدنيا والموت يطلبه!

وعجبت لضاحكٍ بملء فِيه «أى ملء فمه» لا يدرى: آلله راضٍ عنه أم ساخط عليه!

وبكيت لفراق الأحبة محمد وحزبه.

وبكيت لهول المطلع عند سكرات الموت.

وبكيت لطول القيام بين يدى الله رب العالمين يوم القيامة لا أدرى أينطلق بى إلى جنة الله أم إلى نار الله والعياذ بالله.

من أجل ذلك أحبتى فى الله كان سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين يعدون لهذا اليوم عدته.. يعدون له ألف حساب.. كانوا شديدى الخوف من لقاء رب العالمين.. علموا أن خير زاد إلى الله عز وجل هو «تقوى الله عز وجل».

قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).

والعاقل الراشد من وعى ذلك وقام به لأنه مقبل على يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٢) فالتقوى هى خير زاد.. ولكن ماذا تعنى كلمة التقوى؟

ببساطة شديدة التقوى هى: «مخافة الله فى السر والعلن».

---

(١) سورة البقرة: ١٩٧ .

(٢) سورة الشعراء: ٨٨ .

وقد عرفها بعض العلماء بقوله: «التقوى هى: فعل الأوامر والطاعات.. واجتناب النواهى والمنكرات فى جميع الأماكن وفى كل الأوقات».

وعرفها بعض العلماء بقوله: «التقوى هى أن يراك الله حيث أمرك ويفتقدك حيث نهاك» وعندما سُئل الإمام علىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - عن التقوى؟ قال: «التقوى هى الخوف من الجليل.. والعمل بالتنزيل.. والرضا بالقليل.. والاستعداد ليوم الرحيل».

ففى هذه الكلمات الموجزة وضح الإمام علىّ أصول التقوى وأركانها.. فالخوف من الله عز وجل هو رأس الحكمة وجوهر الإيمان.. وإنما يخشى الله سبحانه وتعالى ويخافه مَنْ علم به وقام بحدوده:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(١).

ولهذا لا يكفى الخوف بلا عمل لأن حقيقة الخوف تبعث على العمل فمن خاف الله عز وجل قام بفروضه.. واجتنب محارمه وكان دائمًا وأبدًا مراقبًا له مستشعرًا حضوره.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(٢).

وخير العمل ما قام على تنزيل الله تعالى.. واستمد معالمه وحدوده ومواصفاته من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ وهذا هو حقيقة الاستعداد ليوم الرحيل.. يوم الموت وفراق الدنيا.. يوم القيامة ولقاء الله تعالى.. يوم الحساب والعرض على الله.. يوم الجزاء والثواب.. يوم الجنة والنار..

قال الله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(٣).

(١) سورة فاطر: ٢٨ .
(٢) سورة الحديد: ٤ .
(٣) سورة الزمر: ٦٩: ٧٠ .

فتقوى الله تعالى هى خير زاد.. والخوف من الله عز وجل هو أساس التقوى وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه..

فعن أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها - قالت: صنع رسول الله ﷺ أمرًا فترخص فيه، فبلغ ذلك ناسًا من أصحابه فكأنهم كرهوه، وتنزهوا، فبلغه ذلك، فقام خطيبًا، فقال: «ما بال رجال بلغهم عنى أمر ترخصت فيه فكرهوه، وتنزهوا عنه، فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم خشية له»(١).

فإذا كملت معرفة الله.. أثمرت الخوف.. ففاض أثره على القلب.. ثم ظهر على الجوارح والأعضاء بالنحول والاصفرار والبكاء والغشى وقد يفضى إلى الموت وقد يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل.. وظهور أثر الخوف على الجوارح يكون بكفها عن المعاصى وإلزامها الطاعات.

وصية عبدٍ خائف من الله:

عن أبى هريرة - رضى الله عنه وأرضاه - قال: إن رسول الله ﷺ قال: «كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا متُّ فأحرقونى ثم اطحنونى ثم ذرُّونى فى الريح(٢)، فوالله لئن قدر الله علىَّ(٣) ليعذبنى عذابًا ما عذبه أحدًا، فلما مات فعل به ذلك(٤) فأمر الله الأرض فقال: اجمعى ما فيك.. فإذا هو قائم.

فقال: ما حملك على ما صنعت؟

قال: خشيتك يارب - أو قال - مخافتك - فغفر له»(٥).

---

(١) أخرجه البخارى ج١٠ ص٤٣٧ ومسلم (٢٣٥٦).
(٢) أى طيروا أجزاء جسمى وفرقوها هنا وهناك، والتذرية التفريق.
(٣) قدر بتخفيف الدال من القدرة أى تمكن من إعادتى حيًا.
(٤) يعنى نفذ أبناؤه وصيته.
(٥) متفق عليه.

الفاروق عمر بن الخطاب وشدة خوفه من الله:

قال أبو سعيد مولى أبى أسيد: كان عمر إذا صلى أخرج الناس من المسجد فأخذ إلينا، فلما رأى أصحابه ألقى الدرة وجلس فقال: ادعوا، فدعوا، قال: فجعل يدعو ويدعو حتى انتهت الدعوة إلىَّ، فدعوت وأنا مملوك فرأيته - أى عمر - دعا وبكى بكاء لا تبكيه الثكلى فقلت فى نفسى: هذا الذى تقولون إنه غليظ».

وعن عبد الله بن شداد أنه قال: «سمعت نشيج عمر وأنا فى آخر الصف وهو يقرأ سورة يوسف: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1].

القلب العامر.. والقلب الخرب:

قال أبو سليمان الدارانى: أصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل، وكل قلب ليس فيه خوف الله هو قلب خرب»[2].

ضُرب مثل للخوف فاسمعوه:

قال وهيب بن الورد: «بلغنا أنه ضرب لخوف الله مثل فى الجسد، قيل: إنما مثل خوف الله كمثل الرجل يكون فى منزله فلا يزال عامرًا ما دام فيه ربه، فإذا فارق المنزل ربه وسكنه غيره خرب المنزل، وكذلك خوف الله تعالى إذا كان فى الجسد لم يزل عامرًا ما دام فيه خوف الله تعالى، فإذا فارق خوف الله الجسد خرب. . حتى إن المار يمر بالمجلس من الناس فيقولون: بئس العبد فلان فيقول بعضهم لبعض: ما رأيتم منه؟ فيقولون: ما رأينا منه شيئًا غير أنا نبغضه وذلك أن خوف الله فارق جسده.

وإذا مر بهم الرجل فيه خوف الله قالوا: نعم والله الرجل فيقولون: أى شىء رأيتم منه؟ فيقولون ما رأينا منه شيئًا غير أنا نحبه»[3].

---

(١) سورة يوسف: ٨٦ .
(٢) الإحياء: ٤/١٥٩ .
(٣) التخويف لابن رجب (٥) .

عظة.. وعبرة:

عوتب أحد السلف فى كثرة بكائه، فقال: إنى إذا ذكرت أهل النار وما ينزل بهم من عذاب الله عز وجل وعقابه.. تمثلت لى نفسى بينهم، فكيف لنفس تغل يداها إلى عنقها، وتسحب إلى النار ألا تبكى وتصيح؟

مَنْ هو العالِم؟!

عن مالك بن مغول قال: قال رجل للشعبى:

أيها العالم أفتنا. قال: «العالم من يخاف الله»[١].

ومع هذا لا يعتبر:

روى أن أحد الصالحين مرَّ بالبادية فرأى على بعدٍ كوخًا أمامه شاة تشوى على النار فوقف أمامها يبكى بكاءً شديدًا فخرج صاحب الكوخ فرآه يبكى فقال: يا عبد الله لا تبكِ انتظر حتى تطيب وخذ منها ما تريد. ظن أنه يبكى من ألم الجوع. فقال الرجل: يا عبد الله ما لهذا أبكى ولكنى أبكى لأن هذه الشاة تدخل النار بعد أن تذبح وتسلخ.. أما الإنسان فسيدخل النار وهو حى ومع هذا لا يعتبر!!

هؤلاء هم أصحاب محمد ﷺ:

قال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه:

والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ، فما أرى اليوم شيئًا يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثًا غبرًا، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجدًا وقيامًا، يتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله عز وجل، مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين[٢].

(١) الحلية لأبى نعيم ٤/ ٣١١ .
(٢) مختصر منهاج القاصدين ص٣١٤ .

مات وخرجت نفسه من الخوف:

قال إبراهيم بن عيسى اليشكرى: دخلت على رجل بالبحرين قد اعتزل الناس، وتفرغ لنفسه.. فذاكرته شيئًا من أمر الآخرة، وذكر الموت قال: فجعل يشهق حتى خرجت نفسه(١).

هذا هو الخوف حقًا:

عن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال لعمر - رضى الله عنه - حين طُعن:

يا أمير المؤمنين أسلمت حين كفر الناس.. وجاهدت مع رسول الله ﷺ حين خذله الناس.. وتوفى رسول الله ﷺ وهو عنك راض، ولم يختلف عليك اثنان، وقُتلت شهيدًا.

فقال عمر - رضى الله عنه - المغرور من غررتموه، والله لو أن لى ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلع»(٢).

وقال رضى الله عنه وأرضاه:

«لو نادى مناد من السماء: أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم إلا رجلًا واحدًا لخفت أن أكون أنا هو»(٣).

وعن عبد الله بن عامر قال:

رأيت عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أخذ تبنة من الأرض فقال: «ليتنى كنت هذه التبنة، ليتنى لم أخلق.. ليت أمى لم تلدنى.. ليتنى لم أكن شيئًا.. ليتنى كنت نسيًا منسيًا»(٤).

---

(١) المرجع السابق ص٣١٥ .
(٢) تنبيه الغافلين ٢ / ٤١٨ .
(٣) التخويف لابن رجب (١٣) .
(٤) صفة الصفوة . . والحلية لأبى نعيم .

رضى الله عنك يا صديق:

روى عن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه وأرضاه - أنه كان يمسك لسانه ويقول: هذا الذى أوردنى الموارد.

وقال: يا ليتنى كنت شجرة تعضد ثم تؤكل[١]، وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر رضى الله عن صحابة نبينا أجمعين.

ينبغى لحامل القرآن:

عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال:

«ينبغى لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذ الناس نائمون.. وبنهاره إذ الناس مفطرون.. وبحزنه إذ الناس يفرحون.. وببكائه إذ الناس يضحكون.. وبصمته إذ الناس يتكلمون.. وبخشوعه إذ الناس يختالون وينبغى لحامل القرآن أن يكون محزونًا حليمًا سكيتًا لينًا.. ولا ينبغى أن يكون جافيًا ولا غافلًا ولا صياحًا ولا حديدًا»[٢].

هؤلاء هم الخائفون:

سئل ابن عباس - رضى الله عنهما - عن الخائفين؟

فقال: «قلوبهم بالخوف فرحة.. وأعينهم باكية.. يقولون: كيف نفرح والموت من ورائنا.. والقبر أمامنا.. والقيامة موعدنا.. وعلى جهنم طريقنا.. وبين يدى الله ربنا موقفنا؟»[٣].

روى عن أبى ميسرة - رضى الله عنه - «أنه كان إذا أوى إلى فراشه قال: ليت أمى لم تلدنى. فقالت له امرأته: يا أبا ميسرة.. إن الله قد أحسن إليك.. وهداك إلى الإسلام، قال: أجل، ولكن الله قد بين لنا أنَّا واردون النار.. ولم

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٣١٣ .
(٢) تنبيه الغافلين ٢ / ٦١٨ .
(٣) الإحياء ٤ / ١٨١ .

يبين لنا أنا صادرون عنها»[١].

عن عبد الله بن رواحة - رضى الله عنه - «أنه بكى فبكت امرأته فقال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك بكيت فبكيت لبكائك. قال: إنى أنبئت أنى وارد ولم أنبأ أنى صادر»[٢].

نساء طائعات خائفات:

عن عروة عن أبيه قال: كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة - رضى الله عنها - أسلم عليها.. فغدوت يومًا فإذا هى قائمة تقرأ:

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾[٣].

وتدعو وتبكى وترددها.. فقمت حتى مللت القيام فذهبت إلى السوق لحاجتى ثم رجعت فإذا هى قائمة كما هى.. تصلى وتبكى»[٤].

وكانت عجردة العمية تقوم من أول الليل إلى السحر فإذا كان السحر نادت بصوت لها محزون:

«إليك قطع العابدون دجى الليالى بتبكير الدجى إلى ظلم الأسحار يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك.. فبكَ إلهى لا بغيرك أسألك أن تجعلنى فى أول زمرة السابقين إليك.. وأن ترفعنى إليك فى درجة المقربين.. وأن تلحقنى بعبادك الصالحين.. فأنت أكرم الكرماء.. وأرحم الرحماء.. وأعظم العظماء.. يا كريم.. ثم تخر ساجدة فلا تزال تبكى وتدعو فى سجودها حتى يطلع الفجر»[٥].

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى سورة مريم: ٧١ ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتمًا مقضيًا﴾.
(٢) صفة الصفوة ١ / ٤٨٣ - الحلية ١/ ١١٨.
(٣) سورة الطور: ٢٧.
(٤) صفة الصفوة: ٢/ ٢٢٩.
(٥) صفة الصفوة ٤/ ٣١.

قال خالد بن الوراق: «كان لى جارية شديدة الاجتهاد فدخلت عليها يومًا فأخبرتها برفق الله وقبوله اليسير من الأعمال.. فبكت ثم قالت: إنى لأؤمل من الله تعالى آمالًا لو حملتها الجبال لأشفقت من حملها كما ضعفت عن حمل الأمانة.. وإنى لأعلم أن فى كرم الله مستغاثًا لكل مذنب.. ولكن كيف لى بحسرة السباق؟

قال: قلت وما حسرة السباق؟

قالت: غداة الحشر إذا بعثر ما فى القبور.. وركب الأبرار نجائب الأعمال.. فاستبقوا إلى الصراط.. وعزة سيدى لا يسبق مقصر مجتهدًا أبدًا ولو حبا المجد حبوًا.

أم كيف لى بموت الحزن والكمد إذا رأيت القوم يتراكضون وقد رفعت أعلام المحسنين.. وجاز الصراط المشتاقون.. ووصل إلى الله المحبون.. وخلفت مع المذنبين المسيئين؟ ثم بكت وقالت: انظر لا يقطعك قاطع عن سرعة المبادرة بالأعمال فإنه ليس بين الدارين دار يدرك فيها الخدام ما فاتهم من الخدمة.. فويل لمن قصر عن خدمة سيده ومعه الآمال.. فهلا كانت الأعمال توقظه إذا نام البطالون؟[١].

قال الحسين بن عبد الرحمن: حدثنى بعض أصحابنا قال: «قامت امرأة حبيب أبى محمد وانتبهت ليلة وهو نائم فأنبهته فى السُّحرة وقالت: قم يا رجل فقد ذهب الليل وجاء النهار وبين يديك طريق بعيد وزاد قليل.. وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا ونحن قد بقينا»[٢].

قال الحكم بن سنان الباهلى حدثتنى امرأة كانت تخدم معاذة العدوية قالت: «كانت تحيى الليل صلاة فإذا غلبها النوم قامت فجالت فى الدار وهى تقول: يا نفس، النوم أمامك لو قدمت لطالت رقدتك فى القبر على حسرة أو سرور.

(١) صفة الصفوة ٤/٤٧ .
(٢) المصدر السابق .

ومن كلامها: عجبت لعين تنام وقد عرفت طول الرقاد فى ظُلم القبور»[١].

قالت عفيرة العابدة: «ربما اشتهيت أن أنام فلا أقدر عليه.. وكيف ينام أو كيف يقدر على النوم من لا ينام عنه حافظاه ليلًا ونهارًا»[٢].

وصية وعظة:

قال بعض السلف: قلت لراهب: أوصنى، فقال: إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام.. فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فيفترسنه.. أو يسهو فينهشنه فهو مذعور فافعل..

قلت: زدنى.

فقال: الظمآن يجزيه من الماء أيسره[٣].

وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخص احتوشته السباع والهوام هو حقيقة فى حق المؤمن فإن من نظر إلى باطنه بنور بصيرته رآه مشحونًا بالسباع والهوام.. كالغضب.. والحقد.. والحسد.. والكبر.. والعُجب.. والرياء وغير ذلك وكلهن ينهشنه ويفترسنه إن سها عنهن إلا أنه محجوب عن مشاهدتها فإذا انكشف الغطاء ووضع فى القبر عاينها متمثلة حيّات وعقارب يلدغنه وإنما هى صفاته الحاضرة الآن فمن أراد أن يقهرها قبل الموت ويقتلها فليفعل.. وإلا فليوطن نفسه على لدغها لصميم قلبه فضلًا عن ظاهر بشرته.

الخوف فى وحى الشعراء:

قال الفرزدق:

أخاف وراء القبر - إن لم يعافنى ... أشد من القبر التهابًا وأضيقًا
إذا جاءنى يوم القيامة قائد ... عنيف وسواق يسوق الفرزدقا

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٢ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) مختصر منهاج القاصدين ص٣١٥ .

لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغلول القلادة أزرقا[١]

ثمرات الخوف:

بعد أن وقفنا مع هذه الكوكبة.. وهذه النماذج المضيئة من الصحابة والتابعين وعرفنا منزلة الخوف عندهم لنا أن نتساءل:

ما الثمرات المرجوة من الخوف؟

وللإجابة على هذا السؤال قال الغزالى:

«إنه - أى الخوف - يقمع الشهوات.. ويكدر اللذات، فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهًا عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سمًا فتحترق الشهوات بالخوف.. وتتأدب الجوارح ويذل القلب ويستكين.. ويفارقه الكبر والحقد والحسد ويصير مستوعب الهم لخوفه.. والنظر فى عاقبته، فلا يتفرغ لغيره.. ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات»[٢].

بعد هذا نختم الحديث عن التقوى والخوف من الله بحديث للنبى الكريم ﷺ يقول فيه:

«من خاف أدلج[٣] ومن أدلج بلغ المنزلَ ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة»[٤].

فحقيقة الخوف اجتناب المعاصى والآثام والتشمير والاجتهاد فى طاعة الله رب العالمين. ولذا يقول النبى الكريم ﷺ فى ذلك:

«اتق المحارم تكن أعبدَ الناس وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس

---

(١) الأبيات فى الديوان ٥٧٨ والكامل ١/ ٧١ .
(٢) الإحياء ٤/ ١٦ .
(٣) أدلج أى شمر واجتهد فى طاعة الله .
(٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن، رياض الصالحين للنووى ص١٩٢ .

وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضَّحك فإن كثرة الضحك تميت القلبَ»[١].

* * *

(١) أخرجه الترمذى .

الباب الرابع
الهمة فى التوبة

التوبة هى مسعى من مساعى القلب.. وهى تنزيه القلب عن الذنب..

فهى عبارة عن ندم.. هذا الندم يورث عزمًا وقصدًا.. وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصى حائلًا بين الإنسان وبين محبوبه.

والندم هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب وعلامته طول الحزن والبكاء.

والتوبة هى مطلق العودة إلى الله رب العالمين. فهى أول الطريق.. وهى أوسط الطريق.. وهى نهاية الطريق.. فينبغى أن تكون التوبة ملازمة للعبد على الدوام.

وقد يظن البعض أن التوبة قاصرة على العصاة المذنبين.. ولكن هيهات هيهات إن التوبة واجبة على الجميع.. الطائع والعاصى.. المؤمن والكافر.. الكبير والصغير..

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[2].

والتوبة سبب من أسباب فرح الله عز وجل بعبده التائب العائد.

فعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه وأرضاه - أن رسول الله ﷺ قال: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دَوِّية[3] مهلكة، معه

(١) سورة النور: ٣١ .
(٢) سورة التحريم: ٨ .
(٣) الدو والدوى والدوية: الفلاة المستوية الواسعة البعيدة الأطراف .

راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال: أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، عليها زاده وطعامه وشرابه فقال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته»(١).

والأحاديث فى فضل التوبة كثيرة لا حصر لها.. والإجماع منعقد على وجوب التوبة.. لأن الذنوب حجاب يحجب رحمة الله عن عباده.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾(٢).

فيجب الهرب من الذنوب والمعاصى والفرار منها على الفور لأنها مهلكات مبعدات عن الله تعالى.

والتوبة واجبة على الدوام فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، لو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه.. وإن خلا عن ذلك لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى.. لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور فى العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص ولا يسلم أحد من هذا النقص وإنما الناس يتفاوتون فى المقادير وأما أصل ذلك فلا بد منه.

ولهذا قال الرسول الكريم ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة - رضى الله عنه وأرضاه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقولُ: «والله إنى لأستغفر الله وأتوب

(١) أخرجه البخارى ومسلم.
(٢) سورة طه: ١٢٤: ١٢٧.

إليه[١] فى اليوم أكثر من سبعين مَّرة»[٢]، هذا هو الحبيب ﷺ يستغفر الله فى اليوم أكثر من سبعين مرة وهو الذى أكرمه الله وشرفه وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأتم نعمته عليه بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[٣]. . وأما غيره - ﷺ - فكيف يكون حاله؟ نسأل الله تعالى العافية. واعلم أخى الحبيب أنه متى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[٤].

التوبة وطول الأمل:

قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه: الذى حجب الناس عن التوبة طول الأمل.

وعلامة التائب:

«إسبال الدمعة. . وحب الخلوة. . والمحاسبة للنفس عند كل همة»[٥].

شروط التوبة:

قال الإمام النووى فى «رياض الصالحين» قال العلماء:

«التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يقلع عن المعصية.

والثانى: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم ألا يعود إليها أبدًا.

---

(١) أطلب منه مغفرته وإحسانه .
(٢) رواه البخارى، رياض الصالحين ص١٨ .
(٣) سورة الفتح: ٢ .
(٤) سورة الشورى: ٢٥ .
(٥) ذم الهوى لابن الجوزى ص١٧٤ .

فإن فقد أحد الثلاثة، لم تصح توبته.

وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمى، فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها فإن كانت مالًا أو نحوه ردَّه إليه، وإن كان حدَّ قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كان غيبة استحله منها ويجب أن يتوب من جميع الذنوب فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب، وبقى عليه الباقى.

فالحذر الحذر أخى الحبيب من المعصية.. والحذر الحذر أخى الحبيب من تسويف التوبة ولو للحظة واحدة فو الله إن عمر الموت لحظة.

حرب من نوع غريب!

أحبتى فى الله:

«عقلكم يحثكم على التوبة وهواكم يمنعكم.. والحرب بينهما.. فلو جهزتم جيش عزم.. فر العدو.. تنوون قيام الليل فتنامون.. وتحضرون المجالس فلا تبكون، ثم تقولون ما السبب؟ «قل هو من عند أنفسكم».

عصيتم بالنهار.. فنمتم بالليل.. أكلتم الحرام.. فأظلم القلب.. لما فتح باب الوصول للمقبولين طردتم»[١].

قال أبو سليمان الدارانى - رحمه الله -:

«من صفا صُفى له ومن كدر كدر عليه، ومن أحسن فى ليله كوفئ فى نهاره، ومن أحسن فى نهاره كوفئ فى ليله»[٢].

أحبتى فى الله:

يا من تنطقون بالشهادتين وتعملون بحقوقهما!

---

(١) المدهش لابن الجوزى / ٣٦٥ .
(٢) صيد الخاطر لابن الجوزى / ١٨ .

يا من تقيمون الصلاة وتؤدون أركانها!

كيف ترضون لأنفسكم السباحة فى بحر الدنيا من غير قميص النجاة؟

وكيف ترضون لأنفسكم الغوص فى المعاصى من غير استغفار أو توبة؟

لا أظن أن أحدنا يقر له قرار أو يهدأ له بال إذا علم أن خلفه:

الموت وسكراته.. والقبر وآلامه.. والبعث وأهواله.. والحشر ومآله.. والميزان ودقته.. والحساب وشدته.. والصراط وعراقيله.. والنار والنار.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾(١).

أحبتى فى الله إن الأمر عظيم والخطب خليل والموقف مهيب.. ولنتخيل لو أننا قبضنا هذه الساعة فكيف سنواجه ربنا؟ وبأى عمل سنقابله؟

وماذا يكون جوابنا لو سئلنا:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾(٢).

يـأيـهـا الـمـغـرور قـم وانـتـبـه ... قد فاتك المطلوب والركب سار
إن كـنـت أذنـبـت فـقـم واعـتـذر ... إلـى كـريـم يـقـبـل الإعـتـذار
وانـهـض إلى مولى عظيم الرجا ... يـغـفـر بـالـلـيـل ذنـوب الـنـهـار

تنبيه هام:

«اعلموا عباد الله أن التوبة ليست من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الجهال.. لا يتصورون التوبة إلا مما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم.. بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهى عنها»(٣).

(١) سورة ق: ٣٠.
(٢) سورة يس: ٦٠: ٦٢.
(٣) رسالة التوبة لابن تيمية رحمه الله / ١٥.

فإن التوبة للجسد كالماء للسمك.. فبدونها يهلك الجسد.. وبها يرتقى ويفلح.

أحبتى فى الله! فهل إلى رجوع من سبيل؟، وهل لنا أن نتوب إلى الله جلت عظمته قبل أن تعضنا الشيخوخة بأنيابها ويتقوس الظهر من هرم؟

فعلى العاقل أن يجهز نفسه للموت ولا يهمل نفسه ولا وقته، بل يصبح كل يوم على تقدير الاستعداد للرحلة لأنه ما من وقت إلا والموت فيه ممكن وهذا أمر متفق عليه.. والناس مختلفون فى كل الأشياء إلا الموت فلا خلاف فيه فهو الحقيقة التى لا مراء فيها ولا جدال ولا ريب ولا شك.

لمثل هذا فأعدوا يا إخوانى!

اكدح لنفسك قبل الموت فى مهل ... ولا تكن جاهلًا فى الحق مرتابا
إن المنيَّةَ موردٌ مناهلها ... لا بُدَّ منها ولو عُمِّرت أحقابا
وفى الليالى وفى الأيام تجربة ... يزداد فيها أولو الألباب ألبابًا
بعدَ الشباب يصيرُ الصلب منحنيًا ... والشَّعرُ بعد سوادٍ كان قد شابا
يُفنى النُّفوس ولا يُبقى على أحد ... ليلٌ سريع وشمس كَرُّها دابا
لمستقر ومسيقات مقدَّرة ... حتى يعود شهود النَّاس غُيَّابا
ومن تعاقره الأيام تُبدله ... بالجار جارًا وبالأصحاب أصحابا
خلّوا بروجًا وأوطانًا مشيَّدة ... ومؤنسين وأصهارًا وأنسابا
فيا له سفرًا بعدًا ومغتربًا ... كُسيتَ منه لطول النأى أثوابا
بموحش ضيِّق ناءٍ محلَّته ... وليس من حلَّه من غيبة آبا
كم من مهيب عظيم الملك متخذ ... دوَن السُّرادق حرَّاسًا وحُجابا
أضحى ذليلًا صغير الشأن منفردًا ... وما يرى عنده فى القبر بوَّابا
وقبلك الناس قد عاشوا وقد هلكوا ... فأضرَبَ الحىّ عن ذى النأى إضرابا

أخى الحبيب!!

يا ساهيًا لاهيًا عما يُراد به ... آن الرحيل وما قدَّمت من زاد
ترجو البقاء صحيحًا سالمًا أبدًا ... هيهات أنت غدا مع من غدا غاد

ففكر يا أخى الحبيب!!

واختر لنفسك التوبة والاستغفار ما دمت من قيد الحياة فى دار الاختيار لم تطو صحيفتك.

فالبدار البدار فيما ينفعك ويرفعك وإياك والتسويف فإنه شر والإنسان معرض للآفات والشواغل الكثيرة.

تفكَّر جيدًا!

محمدُ! ما أعددت للقبر والبلى ... وللملكين الواقفَيْن على القبر
وأنت مصرٌّ لا تراجع توبة ... ولا ترعوى عمَّا يذُمُ من الأمر
سيأتيكَ يومٌ لا تحاول دَفعهُ ... فقدِّم له زادًا إلى البعث والنشر

أخى الحبيب!!

مثِّل لنفسك يوم العرض عريانًا ... مستوحشًا قلق الأحشاء حيرانًا
والنار تلهب من غيظ ومن حنقٍ ... على العصاة! ورب العرش غضبانًا
اقرأ كتابك يا عبدى على مهلٍ ... فهل ترى فيه حرفًا غير ما كانا؟
لما قرأت ولم تنكر قراءته ... إقرار من عرف الأشياء عرفانًا
نادى الجليل: خذوه يا ملائكتى ... وامضوا بعبدٍ عصى للنار عطشانًا
المشركون غدًا فى النار يلتهبوا ... والموحدون بدار الخُلد سكانًا

أخى الحبيب!!

ما أجمل أن يقف أحدنا بين يدى الله تعالى تائبًا نادمًا مطأطئ الرأس رافع اليدين.. يدعوه سبحانه رغبة ورهبة.. والدمعة تنحدر من عينيه وهو يقول:

يارب ما لى غير لطفك ملجأ ... ولعلنى عن بابه لا أطرد
يارب! هب لى توبة أقضى بها ... دَيْنًا علىّ به جلالك يشهد
أنت الخبير بحال عبدك إنه ... بسلاسل الوزر الثقيل مقيد
أنت المجيب لكل داع يلتجى ... أنت المجير لكل من يستنجد
من أى بحر غير بحرك نستقى ... ولأى باب غير بابك نقصد

ويقول مقرًّا بذنوبه:

إلهى عبدك العاصى أتاكا ... مقرًّا بالذنوب وقد دعاكا
فإن يك يا مهيمن قد عصاكا ... فلم يسجد لمعبود سواكا
تجاوز عن ضعيف قد أتاكا ... وجاءك داعيًا يرجو رضاكا
فإن تغفر فأنت لذاك أهل ... وإن تطرد فمن يرحم سواكا؟

* * *

ربنا الله الإله ... واحدًا جل علاه
ليس من رب سواه ... لا إله إلا الله
قل هو الله أحد ... واحد فرد صمد
قد تعالى عن شبيه ... وشريك وولد
فوّض الأمر إليه ... واتكل دومًا عليه
لا تؤمّل مَنْ سواه ... كل أمر فى يديه

ويدعو كما دعا سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه:

خذ بلطفك يا إلهى مَنْ له زاد قليل
مفلس بالصدق يأتى عند بابك يا جليل
كيف حالى يا إلهى ليس لى خير العمل
سوء أعمال كثير زادُ طاعاتى قليل
منه عصيان ونسيان وسهو بعد سهو
منك إحسان وفضل بعد إعطاء الجزيل
ذنبه ذنب عظيم فاغفر الذنب العظيم
إنه شخص غريب مذنب عبد ذليل
عافنى من كل داء واقض عنى حاجتى
إنَّ لى قلبًا سقيمًا أنت مَنْ يشفى العليل
قل لنار أبردى يا ربِّ فى حقى كما
قلتَ قلنا نارُ كونى أنت فى حق الخليل

طال يا ربى ذنوبى مثل رمل لا تعد
فاعفُ عنى كل ذنب واصفح الصفح الجميل
هب لنا ملكًا كبيرًا نجِّنا مما نخاف
ربَّنا إذ أنت قاضى والمنادى جبرئيل
أنت كافى أنت وافى فى مهمات الأمور
أنت حسبى أنت ربى أنت لى نعم الوكيل
ربِّ هب لى كنز فضل أنت وهَّاب رحيم
أعطنى ما فى ضميرى دُلَّنى خيرَ الدليل
أين موسى أين عيسى أين يحيى أين نوح؟
أنت يا صدِّيق عاصٍ تب إلى المولى الجليل

ويقول فى دعائه:

أيا مَنْ ليس لى منك المجير ... بعفوك من عذابك أستجير
أنا العبد المقر بكل ذنب ... وأنت الميسِّر الصمد الغفور
فإن عذبتنى فالذنب منى ... وإن تغفر فأنت به جدير

مع التائبين:

بعد أن وقفنا مع مفهوم التوبة وشروطها هيا بنا عزيزى القارئ نعيش مع أصحاب الهمم العالية فى التوبة إلى الله رب العالمين.

توبة ما أعظمها!!

عن بريدة – رضى الله عنه –: أن ماعزَ بن مالك الأسلمى أتى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله إنى قد ظلمتُ نفسى وزنيتُ، وإنى أريد أن تطهرنى فردّه. فلما كان من الغدِ أتاه، فقال: يا رسول الله إنى قد زنيتُ فردّه الثانية. فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه، فقال: «أتعلمون بعقله بأسًا؟ تنكرون منه شيئًا؟» قالوا: ما نعلمه إلا وفىّ العقل، من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضًا فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله. فلما كان الرابعة حفر له

حفرة ثم أمر به فرجم. . فلبثوا يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله ﷺ فقال: «استغفروا لماعز بن مالك لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»[١].

ما أعظمها وما أجلها من توبة تورث نعيمًا لا ينقطع فى دار الكرامة يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم فتدبر يا أخى رحمنى الله وإياك!

رجَعَتْ ولكن نارَ المعصيةِ تكاد تحرق كبدها!!

إنها قصة غريبة من نوعها. . إنها قصة المرأة الغامدية التى جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: «يا رسول الله إنى قد زنيت فطهرنى وإنه ردها، فلما كان الغد قالت: يا رسول الله لم تردنى؟ لعلك أن تردنى كما رددت ماعزًا، فو الله إنى لحبلَى. قال: «أما لا فاذهبى حتى تلدى» قال: فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة، قالت: هذا قد ولدته. قال: «اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه» فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز - حرصًا منها على التوبة وإقامة الحد - فقالت: هذا يا رسول الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها. فأقبل خالد ابن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها. فسمع نبئ الله سبَّه إياها، فقال: «مهلًا يا خالد! فو الذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكسٍ[٢] لغفر له»[٣]، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت.

وفى رواية فقال عمر: يا رسول الله رجمتها ثم تصلى عليها!

فقال: «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة وسعتهم وهل وجدت شيئًا أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل»[٤].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه .
(٢) الذى يأخذ الضرائب .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه عبد الرزاق فى مصنفه ٧/ ٣٢٥ .

توبة قاتل المائة:

عن أبى سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى - رضى الله عنه - أن نبى الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعًا وتسعين نفسًا.. فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب. فأتاه فقال: إنه قتل تسعًا وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فقال: لا فقتله فكمّل به المائة.. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى نصف الطريق أتاه الموت.. فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله تعالى. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط. فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم - أى حكمًا - فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيَّتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد، فقبضته ملائكة الرحمة»(١).

وفى رواية فى الصحيح «فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها».

وفى رواية فى الصحيح «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقرَّبى وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له»..

نعم ومن يحول بينه وبين التوبة!! فهل ترى الآن يا من يريد التوبة أن ذنوبك أعظم من هذا الرجل الذى تاب الله عليه، فلِمَ اليأس؟.

فالهمة فى التوبة هى الحرص على الرجوع إلى منهج الله عز وجل والامتثال لأوامر الله سبحانه وتعالى والذوبان فى طاعة الله عز وجل والاحتكام لشرع الله

---

(١) متفق عليه.

فى الأمور كلها وكثرة الاستغفار والإنابة إلى الله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا . مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[1].

وها هو الحبيب ﷺ يفتح باب الأمل على مصراعيه أمام العباد فيقول ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل فى حديث قدسى عظيم..

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «يابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالى، يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنانَ السماءِ ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى، يابن آدم لو أنك أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»[2].

إن فى ذلك لعبرة:

بعد أن تحدثنا عن مفهوم التوبة وشروطها والهمة العالية فى التوبة ورأينا نماذج مشرقة من صحابة النبى ﷺ فى حرصهم الشديد وهممهم العالية فى الرجوع والتوبة إلى الله، اعلم أخى الحبيب أن طاعة الله عز وجل والامتثال لأوامره سبب من أسباب السعادة والتمكين والعزة والسيادة.. وأن المعصية سبب من أسباب الذل والضعف والهوان والشقاء.

فعن جبير بن نفير قال: «لما فُتحت قبرص فُرِّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكى فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك فى يوم أعزّ الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير. ما أهون الخلق على الله إذا أضاعوا أمره. بينما هى أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله

(١) سورة نوح ١٠: ١٤ .
(٢) رواه الترمذى (صحيح الجامع ٣٠٠٨) .

فصاروا إلى ما ترى.. فأخشى أن تفتح الدنيا علينا فتنافسها كما تنافسوها فتهلكنا كما أهلكتهم»[١].

نعم إن المعاصى والبعد عن منهج الله من الأمور المهلكة فيجب أن نعى هذا جيدًا.. فالله عز وجل سن لنا سننًا كونية وتعاليم سماوية إذا أخذت بها أمة علت وارتفعت وإذا تركتها أمة ذلت وهانت.. فما عند الله لا ينال إلا بطاعة الله!

ولله در القائل:

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن الذنوب تزيل النِّعم
وحطها بطاعة ربِّ العباد ... فربّ العباد سريع النِّقم
وإياك والظلم مهما استطعت ... فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الورى ... لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم من بعدهم ... شهود عليهم، ولا تتهم

توبة.. وندم[٢]

ليحيى بن يوسف الصرصرى

وأخيرًا أخى الحبيب أختى الحبيبة إليكم هذه القصيدة التى تفيض بالعظة والعبرة وهى بعنوان «توبة وندم ليحيى بن يوسف الصرصرى» هيا نعيش معها بقلوبنا ونتدبر معانيها ومراميها إذا أردنا النجاة والفلاح!!

أنا العبدُ الذى كسب الذنوبا ... وصدَّته الأمانى أن يتُوبَا
أنا العبد الذى أضحى حزينًا ... على زلاتِهِ قلقًا كئيبًا
أنا العبد الذى سُطِرَت عليه ... صحائفُ لم يخف فيها الرَّقيبا
أنا العبد المسىء عصيتُ سِرا ... فما لِى الآن لا أُبدى النحيبا
أنا العبد المفَرِّطُ ضاع عُمرى ... فلم أرعَ الشبيبة والمشيبا

(١) الجواب الكافى ص٤٨ .
(٢) كتاب الذنوب لمحمد بن أحمد سيد ص٩٠: ٩١ .

أنا العبد الغريقُ بلُجِّ بحرٍ أصيحُ لربما ألقى مُجيبا
أنا العبدُ السقيمُ من الخطايا وقد أقبلتُ ألتمس الطبيبا
أنا العبدُ المخلفُ عن أُناسٍ حوَوْا من كل معروف نصيبا
أنا العبد الشريد ظلمتُ نفسى وقد وافيتُ بابكم مُنيبا
أنا العبدُ الفقيرُ مددت كفِّى إليكم فادفعوا عنى الخطوبا
أنا الغدَّارُ كم عاهدت عهدًا وكنتُ على الوفاء به كذُوبا
أنا المقطوعُ فارحمنى وَصِلنى ويسِّرْ مِنْكَ لِى فرجًا قريبًا
أنا المضطرُّ أرجو منك عفوًا ومن يرجو رضاكَ فلن يخيبا
فيا أسَفًا على عمر تقضَّى ولم أكسب به إلا الذنوبا
وأحذر أن يُعَاجِلَنى ممات يُحَيِّر هولُ مَصرعِه اللَّبيبا
ويا حزنَاهُ من حَشرِى ونشرى بيوم يجعَلُ الولدان شيبا
تَفطَّرت السماءُ به ومارت وأصبحت الجبالُ به كثيبا
ويا خَجَلَاهُ من قُبح اكتِسابى إذا ما أبدت الصُحُفُ العُيُوبا
وذِلَّةِ موقفٍ وحسابِ عَدْل أكونُ به على نفسى حسيبا
ويا حذرَاه من نار تلظى إذا زفرت وأقلقت القُلُوبا
تكادُ إذا بَدَت تنشقُّ غيظًا على مَنْ كان ظلامًا مُرِيبا
فيا مَن مَدَّ فى كسب الخطايَا خُطَاه أمَا يأنِى لك أن تتوبا
ألا فاقلع وتُبْ واجهد فإنَّا رأينَا كل مجتهدٍ مُصِيبَا
وأقبِل صادقًا فى العزم واقصد جنَابًا للمنِيب له رحِيبَا
وكُن للصالحِينَ أخًا وخِلًا وكن فى هذه الدنيا غريبا
وكن عن كل فاحشةٍ جبانًا وكن فى الخير مقدامًا نجيبا
ولاحِظْ زينة الدنيا ببُغضٍ تكُن عبدًا إلى المولى حبيبا
فمن يَخْبُر زخارفها يجِدْهَا مُخَالِبَة لطالبها خلُوبا
وغُضَّ عن المحارم منك طرفًا طموحًا يَفْتِنُ الرجل الأريبا
فَخَائِنةُ العُيُونِ كأُسْد غابٍ إذا ما أُهمِلَتْ وثبَتْ وُثُوبا
ومَنْ يغضُض فُضولَ الطرف عنها يجد فى قلبه روحًا وطيبَا

ولا يبرح لسانُك كلَّ وقت بذكر الله ريَّانًا رطِيبا
وصلٌ إذا الدُّجا أرخى سُدُولا ولا تضجَر به وتكن هيُوبا
تجد أنسًا إذا أُودِعت قبرًا وفارقت المعاشر والنَسِيبَا
وصُمْ ما تستطيعُ تجده رِيًّا إذا ما قمت ظمآنًا سغيبا
وكن متصدقًا سرًّا وجهرًا ولا تبخل وكن سمحًا وهُوبًا
تجد ما قدَّمَتْهُ يداكَ ظِلًا إذا ما اشتدَّ بالناس الكُروبَا!!

* * *

الباب الخامس
الهمة فى الصبر

جعل الله عز وجل هذه الحياة دار اختبار وامتحان وابتلاء وتمحيص.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(١).

نعم إن الحياة الدنيا ما هى إلا امتحان واختبار وابتلاء وتمحيص.. اختبار للإيمان فى النفوس.. فالإنسان فى الحياة الدنيا جندى يواجه مجموعة من الأعداء.. الدنيا.. والنفس.. والهوى.. والشيطان.. لذلك فهو فى حاجة ماسة إلى سلاح يواجه به أعداءه هذا السلاح هو «الصبر».

فالصبر من أجل الصفات وأعلاها قدرًا وأعظمها خلقًا وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.. ما وجد فى شىء إلا زانه وما فقد من شىء إلا شانه.

تعريفه:

الصبر هو حبس النفس عن الجزع وإلزامها بأداء الفرض.. ونهيها عن اقتراف المحرم.

أقسام الصبر:

ينقسم الصبر إلى ثلاثة أقسام: صبر على أداء الفرائض وهو الإتيان بها وافية كاملة من غير نقص ولا زيادة. وصبر عن محارم الله وهو البعد عنها والفرار منها.. وصبر على المصيبة وهو حبس النفس عن جزعها على فقد محبوب أو إصابة مكروه.

---

(١) سورة البقرة: ١٥٥ .

فعن على بن أبى طالب - رضى الله عنه وأرضاه - عن ابن عباس - رضى الله عنه - أنه قال: «الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه:

صبر على أداء الفرائض.. وصبر عن المحارم.. وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى»(١).

الأمر بالصبر:

أمر الله تعالى المؤمنين من عباده بالصبر فى مواضع كثيرة من كتابه الكريم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢).

وقال سبحانه وتعالى آمرًا خير خلقه.. حبيبه ومصطفاه سيدنا محمدًا ﷺ:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾(٣).

فضل الصبر:

ذكر الله الصبر فى أكثر من سبعين موضعًا من كتابه العزيز وأثنى عليه فى هذه الآيات:

فى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٦).

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا.
(٢) سورة آل عمران ٢٠٠.
(٣) سورة المزمل: ١٠.
(٤) سورة البقرة: ١٥٥: ١٥٦.
(٥) سورة الإنسان: ١٢.
(٦) سورة الزمر: ١٠.

وقوله تعالى: ﴿إن الله مع الصابرين﴾[١].

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[٢].

وقال الرسول الكريم ﷺ فى فضل الصبر:

«عجبًا لأمر المؤمن.. إن أمره كله خير.. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن.. إن أصابته سراء شكر.. فكان خيرًا له.. وإن أصابته ضراء صبر.. فكان خيرًا له»[٣].

وقال الرسول الكريم ﷺ أيضًا فى فضل الصبر:

«ما يصيب المؤمن من نصب[٤] ولا وصب[٥] ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه»[٦].

الهمة العالية فى الصبر:

والهمة العالية فى الصبر تعنى استقبال قضاء الله عز وجل بالرضا وعدم الجزع أو السخط..

فعن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه وأرضاه - قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدى؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدى؟ فيقولون: حمدك واسترجع[٧]، فيقول: ابنوا لعبدى بيتًا فى الجنة وسمُّوه بيت الحمد»[٨].

(١) سورة الأنفال: ٤٩ .
(٢) سورة الرعد: ٢٤ .
(٣) رواه الإمام مسلم فى صحيحه .
(٤) نصب أى: تعب .
(٥) وصب: مرض .
(٦) رواه البخارى فى صحيحه .
(٧) استرجع: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون .
(٨) جامع الترمذى، ومسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان .

فما أعظم الرضا بقضاء الله! وما أعظم الامتثال لأمر الله عز وجل! فبالهمة العالية فى الصبر ينال الإنسان الكرامة والعزة والسعادة والفلاح وينال رضا الرحمن جل وعلا ويؤجر فى مصيبته وتكون له ذخرًا عند ربه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وعن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اؤجُرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها». قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أى المسلمين خير من أبى سلمة؟! أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ. ثم إنى قلتها فأخلف الله لى رسوله، فأرسل إلىَّ رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة يخطبنى له، فقلت: إن لى بنتًا وأنا غيور، فقال: أما بنتها فأدعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة، فتزوجتُ رسول الله ﷺ»(١).

ما أعظمه من صبر يكون ثوابه رسول الله ﷺ الرحمة المهداة والنعمة المسداة والسراج المنير!!

هكذا تكون الهمة فى الصبر:

عن عطاء بن أبى رباح - رضى الله عنه - قال: قال لى ابن عباس - رضى الله عنهما - ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبى ﷺ فقالت:

«يا رسول الله إنى أصرع وإنى أتكشف فادع الله لى، قال: إن شئت صبرتِ ولكِ الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله تعالى أن يعافيك. فقالت: أصبر. فقالت: إنى أتكشف فادع الله ألا أتكشف فدعا لها»(٢).

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه .
(٢) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه .

هكذا تكون الهمة العالية فى الصبر تتحمل الألم فى الدنيا والمتاعب من أجل أن تفوز برضا الله من أجل أن تفوز برحمة الله عز وجل.. من أجل أن تنعم بدار الكرامة، بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

صبر من نوع عجيب!

عن أنس - رضى الله عنه - قال: «اشتكى ابن لأبى طلحة فمات وأبو طلحة خارجًا.. فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئًا وسجَّته[١] فى جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح.. فظن أبو طلحة أنها صادقة.. قال فبات معها فلما أصبح اغتسل.. فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات.. فصلى مع رسول الله ﷺ ثم أخبره بما كان منهما.. فقال رسول الله ﷺ: لعل الله أن يبارك لكما فى ليلتكما.. قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت له تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن»[٢].

وفى رواية أخرى أن أم سليم زوجة أبى طلحة لما عاد من الخارج. قَرَّبَت إليه عشاء فأكل وشرب ثم تصنعت له أحسن ما كانت تتصنع له فغشيها فلما رأته قد شبع وأصاب قالت له: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟! فقال: لا! قالت: فاحتسب ولدك فإنه عارية الله عندك، وقد أخذ عاريته! فانطلق إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال له ﷺ: «بارك الله لكما فى ليلتكما»[٣].

حقًّا إنه صبر من نوع عجيب.. همة من نوع عجيب.. ولكن لا عجب فإن الإيمان إذا باشر شغاف القلوب فإنه يصنع المعجزات.. يجعل المستحيل ممكنًا.. ويجعل الصعب سهلًا.. ذلك الإيمان الذى حول أمة الإسلام من

---

(١) سجَّته: غطته.
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه.
(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه.

رعاة غنم إلى قادة أمم.. حولهم من قبائل بداوة إلى أمم حضارة.. إنه إكسير العزة والسعادة!

إنما الصبر عند الصدمة الأولى!

من معالم الهمة العالية فى الصبر أن يكون الصبر عند الصدمة الأولى وذلك لأن مفاجآت المصيبة لها روعة تزعزع القلب وتزعجه بصدمتها.. فإن صبر للصدمة الأولى انكسر حدها وضعفت قوتها فهان عليه استدامة الصبر.. وأيضًا فإن المصيبة ترد على القلب وهو غير موطَّن لها فتزعجه وهى الصدمة الأولى وأما إذا وردت عليه بعد ذلك توطن لها وعلم أنه لا بد له منها فيصير صبره شبيه الاضطرار(١).

فعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكى على صبى لها.. فقال لها: اتقى الله واصبرى.. فقالت: وما تبالى بمصيبتى.. فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله ﷺ فأخذها مثل الموت.. فأتت بابه فلم تجد على بابه بوَّابين، فقالت: يا رسول الله: لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند أول صدمة»، وفى لفظ «عند الصدمة الأولى»(٢).

فهذه المرأة لما علمت أن جزعها لا يجدى عليها شيئًا - الجزع لا يرد الفائت ولكن يسر الشامت - لما علمت هذا جيدًا جاءت تعتذر إلى النبى ﷺ كأنها تقول له قد صبرت.. فأخبرها أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى!!.

فهذا الحديث يعلمنا: وجوب الصبر على المصائب وأنه من التقوى التى أُمر العبد بها.. أن الهمة العالية فى الصبر أن يكون الصبر عند الصدمة الأولى وأن كل ذى رزية فإن قصاراه الصبر.. ولكنه إنما يحمد على صبره عند حدة المصيبة وحرارتها.

---

(١) نقلًا عن كتاب عدة الصابرين لابن قيم الجوزية ص ٧٧ .
(٢) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

فمن حسن الصبر ألا يظهر أثر المصيبة على المصاب كما فعلت أم سليم امرأة أبى طلحة لما مات ابنها رضى الله عنها وعن صحابة نبينا أجمعين.

نِعْم الصبر صبرُك يا عروة!

إنه نموذج فريد للصبر والصابرين إنه عروة بن الزبير رضى الله عنه..

روى أن عروة بن الزبير قدم على الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد.. وكان من أحسن الناس وجهًا.. فدخل يومًا على الوليد فى ثياب وشى.. وله غديرتان وهو يضرب بيده، فقال الوليد: هكذا تكون فتيان قريش.. فعانه[١] فخرج من عنده متوسنًا[٢].. فوقع فى إصطبل الدواب فلم تزل الدواب تطؤه بأرجلها حتى مات.. ثم إن الأَكَلَة وقعت فى رجل عروة فبعث إليه الوليد الأطباء فقالوا: إن لم تقطعها سرت إلى باقى الجسد فتهلك.. فعزم على قطعها. فنشروها بالمنشار.. فلما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة فغشى عليه.. ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر.. فأخذها وجعل يقبلها فى يده ثم قال: أما والذى حملنى عليك إنه ليعلم أنى ما مشيت بك إلى حرام. ولا إلى معصية ولا إلى ما لا يرضى الله.. ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت فى قطيفة ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين فلما قدم من عند الوليد المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقاؤه يعزونه فجعل يقول: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾[٣]، ولم يزد عليه ثم قال: لا أدخل المدينة، إنما أنا بها بين شامت بنكبة أو حاسد لنعمة.. فمضى إلى قصره بالعقيق فأقام هنالك.. فلما دخل قصره قال له عيسى بن طلحة: لا أبا لشانئيك.. أرنى هذه المصيبة التى نعزيك فيها.. فكشف له عن ركبته فقال له عيسى: أما والله ما كنا نعدك للصراع قد أبقى الله أكثرك.. عقلك ولسانك وبصرك ويديك وإحدى رجليك فقال له: يا عيسى ما عزانى أحد بمثل ما عزيتنى به. ولما

(١) فعانه: أى أصابه بعينه، حسده.
(٢) متوسنًا: من الوسن وهو النعاس.
(٣) سورة الكهف: ٦٢.

أرادوا قطع رجله قالوا له: لو سقيناك شيئًا كى لا تشعر بالوجع، فقال: إنما ابتلانى ليرى صبرى أفأعارض أمره.. وسئل ابنه هشام: كيف كان أبوك يصنع برجله التى قطعت إذا توضأ؟ قال: كان يمسح عليها»[١].

نِعمَ المرأة كانت!!

كان صلة بن أشيم - رضى الله عنه - فى مغزًى ومعه ابنه فقال: أى بنى! تقدم فقاتل حتى أحتسبك.. فحمل فقاتل حتى قتل ثم تقدم فقتل فاجتمع النساء عند أمه «معاذة العدوية» فقالت: مرحبًا إن كنتن جئتن تهنئننى.. وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن[٢].

نِعمَ الجواب:

روى أن لقمان الحكيم سأله رجل: أىُّ شىء خيرٌ؟ قال: صبر لا يتبعه أذى، قال: فأىُّ الناس خير؟ قال: الذى يرضى بما أوتى، قال: فأىُّ الناس أعلم؟ قال: الذى يأخذ من علم الناس إلى علمه. قيل: فما خير الكنز من المال أو من العلم؟ قال: سبحان الله بل المؤمن العالم الذى إن ابتُغِىَ عنده خير وُجد وإن لم يكن عنده كفَّ نفسه.. وبحسب المؤمن أن يكفَّ نفسه[٣].

حقيقة الصبر:

قال عبد الله بن المبارك: أخبرنا عبد الله بن لهيعة عن عطاء بن دينار أن سعيد بن جبير قال: «الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه.. واحتسابه عند الله.. ورجاء ثوابه.. وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر»[٤].

أما والذى لا خلدَ إلا لوجهه ... ومَنْ ليس فى العز المنيع له كفو
لئن كان بدءُ الصبر مرًّا مذاقُه ... لقد يُجنى من غبه الثمرُ الحلو

(١) نقلًا عن كتاب عدة الصابرين لابن قيم الجوزية ص٩٥ / ٩٦ .
(٢) مختصر منهاج القاصدين ص٢٧٣ .
(٣) أخرجه الإمام أحمد، عدة الصابرين ص٩٦ .
(٤) عدة الصابرين ص٩٧ .

الباب السادس
الهمة فى الصدق

إن الله عز وجل خلق هذا الكون بالحق وطلب إلى الناس أن يبنوا حياتهم على الحق فلا يقولوا إلا حقًا ولا يعملوا إلا حقًا..

يقول ابن القيم عن الصدق والحق: (الصدق هو الطريق الأقوم الذى مَنْ لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين.. وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان.. وسكان الجنان من أهل النيران.. وهو سيف الله فى أرضه الذى ما وضع على شىء إلا قطعه. ولا واجه باطلًا إلا أرداه وصرعه.

مَنْ صال به لم تُرد صولته. ومن نطق به علت على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال.. ومحك الأحوال.. والحامل على اقتحام الأهوال.. والباب الذى دخل منه الواصلون إلى حضرة ذى الجلال. وهو أساس بناء الدين. وعمود فسطاط اليقين.. ودرجته تالية لدرجة (النبوة) التى هى أرفع درجات العالمين. ومن مساكنهم فى الجنات: تجرى العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم فى هذه الدار مدد متصل ومعين)[1].

وقد أمر الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين. وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2].

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ص١٩٨ .
(٢) سورة التوبة: ١١٩ .

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾(١).

ولا يزال الله يمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده إحسانًا منه وتوفيقًا.. ولهم مرتبة المعية مع الله عز وجل. فإن الله سبحانه مع الصادقين.. ولهم منزلة القرب منه؛ إذ درجتهم منه ثانى درجة النبيين.

فالصدق يؤدى إلى نشر الثقة والاطمئنان بين العباد وها هو النبى ﷺ يقول فيما يرويه عنه الحسن بن على - رضى الله عنهما -:

«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة»(٢).

حقًا إن الصدق طمأنينة.. والكذب ريبة.. يتضح هذا جليًا فى حياة رسول الله ﷺ فقد لُقب قبل بعثته بالصادق الأمين وكانت هذه السمات وهذه الصفات مدعاة لنشر الثقة والاطمئنان إلى طيب أصله ورجاحة عقله ﷺ. فقد كان الصدق سمة من سماته وخلقًا من أخلاقه ﷺ ولذلك عندما كاد الخلاف ينشب بين قبائل قريش واشتد الخلاف حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم استطاع النبى ﷺ بفضل الله وهذه الثقة الموجودة بفضل صدقه أن يقضى على هذا الخلاف فى مسألة بناء الكعبة وقضية التحكيم وإليك هذه القصة..

رضينا بالأمين.. رضينا بالأمين:

قبل بعثته ﷺ بخمس سنين جرف مكة سيل عرم.. انحدر إلى البيت الحرام فأوشكت الكعبة منه على الانهيار.. فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصًا على مكانتها واتفقوا على ألا يدخلوا فى بنائها إلا طيبًا فلا يدخلوا فيها مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس.. وكانوا يهابون هدمها فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومى.. وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصبه شىء.. ولم يزالوا فى الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم.. ثم أرادوا الأخذ فى البناء فجزءوا

(١) سورة النساء: ٦٩.

(٢) أخرجه الترمذى - خلق المسلم لمحمد الغزالى ص٣٩.

الكعبة وخصصوا لكل قبيلة جزءًا منها..

فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة وأخذوا يبنونها.. وتولى البناء بناء رومى اسمه (باقوم) ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم.. إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين رضيناه.. هذا محمد فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر طلب رداء فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء وأمرهم أن يرفعوه حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه فى مكانه وهذا حل حصيف رضى به القوم(١).

إنها الثقة.. والاطمئنان الذى نشره الصدق بين العباد!!

وإليك عزيزى القارئ هذا الموقف الذى يوضح عِظَم فضيلة الصدق فى نشر الثقة والطمأنينة.

على جبل الصفا:

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ صعد النبى ﷺ على الصفا فجعل ينادى يا بنى فهر! يا بنى عدى! لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش. فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادى تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقى؟! قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقًا. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تبت يدا أبى لهب وتب﴾(٢).

(١) صحيح البخارى، سيرة ابن هشام، الرحيق المختوم ص٧٠، ٧١ .
(٢) أخرجه البخارى ٢ / ٧٠٢، ٧٤٣ وصحيح مسلم ١/ ١١٤ .

هكذا يكون الصدق مع النفس:

إنه صدق من نوع غريب.. إنه الصدق مع النفس يتجلى فى قصة إسلام ذلك الصحابى الجليل سيدنا (ثمامة بن أثال) سيد أهل اليمامة فهيا بنا نعيش لحظات مع الصدق والصادقين..

بعث رسول الله ﷺ خيلًا قِبَل نجد.. فجاءت برجل من بنى حنيفة يُقال له: (ثمامة بن أثال) سيد أهل اليمامة.. فربطوه بسارية من سوارى المسجد فخرج إليه رسول الله ﷺ.

الرسول ﷺ: «ماذا عندك يا ثمامة؟»[١].

ثمامة: عندى خير يا محمد إن تقتل تقتل ذا دمٍ[٢] وإن تُنعم تُنعم على شاكر وإن كنت تريد المال فسل تُعطَ منه ما شئت.

فتركه رسول الله ﷺ حتى إذا كان يوم الغد..

الرسول ﷺ: «ماذا عندك يا ثمامة؟»

ثمامة: عندى خير يا محمد..

فتركه رسول الله ﷺ حتى إذا كان يوم الغد..

الرسول ﷺ: «ماذا عندك يا ثمامة؟»

ثمامة: عندى ما قُلت لك إن تُنعم تُنعم على شاكر.

الرسول ﷺ: «أطلقوا ثمامة»..

يطلق الصحابة ثمامة.. فينطلق إلى نخل قريب من المسجد فيغتسل ثم يدخل المسجد..

ثمامة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.. يا محمد والله

(١) ماذا تظن أنى فاعل بك؟

(٢) تقتل من عليه دم مطلوب به وهو مستحق عليه فلا عتب عليك فى قتله.

ما كان على الأرض وجهٌ أبغض إلىَّ من وجهك فقد أصبح وجهُك أحبَّ الوُجوه إلىَّ.. إنه الصدق مع النفس!

والله ما كان من دين أبغض إلىَّ من دينك فقد أصبح دينُك أحبَّ الدين كله إلىَّ.. والله ما كان من بلد أبغض إلىَّ من بلدك.. فقد أصبح بلدُك أحبَّ البلاد إلىَّ.. وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟

يبشره الرسول ﷺ ويأمره أن يعتمر.

يقدم ثمامة إلى مكة.

المشركون لثمامة: أصبأت؟(١).

ثمامة: لا.. ولكن أسلمت مع رسول الله ﷺ.. ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ(٢).

المؤمن لا يكون كذابًا!!

سئل رسول الله ﷺ:

«أيكون المؤمن جبانًا؟ قال: «نعم»!

قيل له: أيكون المؤمن بخيلًا؟ قال: «نعم»!

قيل له: أيكون المؤمن كذابًا؟ قال: «لا» »(٣).

أبغض الصفات إلى رسول الله ﷺ:

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: (ما كان من خُلقٍ أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب.. ما اطَّلع على أحد من ذلك بشىء فيخرُجُ من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة)(٤).

(١) أصبأت: أتركت دين آبائك.
(٢) هذا لفظ مسلم رقم ١٧٦٤ فى الجهاد وأورده البخارى مختصرًا.
(٣) رواه مالك.
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده.

الصدق يهدى إلى البر:

يقول الإمام الجليل «محمد الغزالى» رحمه الله:

«إن العمل الصادق هو العمل الذى لا ريبة فيه لأنه وليد اليقين ولا هوى معه لأنه قرين الإخلاص ولا عوج عليه لأنه نبع من الحق.. ونجاح الأمم فى أداء رسالتها يعود إلى جملة ما يقدمه بَنُوها من أعمال صادقة.. فإن كانت ثروتها من صدق العمل كبيرة سبقت سبقًا بعيدًا.. وإلا سقطت فى عرض الطريق.. فإن التهريج والخبط والادعاء والهزل لا تغنى فتيلًا عن أحد» (١).

فالصدق يهدى إلى كل بر وصلاح ويقود أهله إلى دار الكرامة إلى جنة الله سبحانه.. أما الكذب فإنه يهدى إلى كل شر ويقود أهله إلى دار الندامة إلى نار الله سبحانه وتعالى، وقد بين الرسول الكريم ﷺ هذا حيث قال:

عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر.. و إن البر يهدى إلى الجنة.. وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقًا.. وإياكم والكذب! فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار.. وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا» (٢).

قال ابن القيِّم - رحمه الله - جعل النبى - صلى الله عليه وسلم - الصدق مفتاح الصِّدِّيقية ومبدأها وهى غايته.. فلا ينال درجتها كاذب ألبتة.. لا فى قوله ولا فى عمله ولا فى حاله (٣).. والصِّدِّيقية هى أعلى مراتب الصدق ولذا سُمّى سيدنا «أبو بكر» - رضى الله عنه وأرضاه - بالصدِّيق والذى لقبه بهذا هو رسول الله ﷺ وذلك لأن الصدق كان سجية من سجايا الصِّديق.. كان سمة من سماته، وصفة من صفاته، وخلقًا كريمًا من أخلاقه.

---

(١) خلق المسلم لمحمد الغزالى (ص٤٨).
(٢) أخرجه البخارى ومسلم.
(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٠١).

الكذب من علامات النفاق!!

الكذب صفة ذميمة فهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب، ويعد علامة من علامات النفاق كما بَيَّن هذا الصادق المصدوق ﷺ حيث يقول فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه -: قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب.. وإذا وعد أخلف.. وإذا اؤتمن خان» (١).

الكذب يمحق البركة!!

التاجر قد يكذب فى بيعه وفى بيان سلعته وعرض ثمنها ولا يدرى المسكين أن الكذب يمحق البركة من الرزق.. لا يدرى المسكين أن الكذب يذهب بكل خير ويُحِل النقم مكان النعم.

فعن حكيم بن حزام - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال: «البيِّعان بالخيار ما لم يفترقا - أو قال حتى يفترقا - فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحقت بركة بيعهما» (٢).

«لو لم تعطه كتبت عليك كذبة»:

عن عبد الله بن عامر: دعتنى أمى يومًا ورسول الله ﷺ قاعد فى بيتنا، فقالت: تعال أعطك فقال لها النبى ﷺ: ما أردت أن تعطيه؟ قالت: أردت أن أعطيه تمرًا فقال لها: «أما إنك لو لم تعطه شيئًا كُتبت عليك كذبة!!» (٣).

الترهيب من الوقوع فى الكذب:

اعلم أخى الحبيب - رحمنى الله وإياك - أن من الأسباب التى تؤدى إلى العذاب الأليم فى القبر وفى الآخرة «الكذب».

فعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «ويلٌ

---

(١) أخرجه البخارى (١/ ١٤) ومسلم (١/ ٧٨).
(٢) أخرجه البخارى (٣/ ١١) والبخارى مع الفتح (٤/ ٣١٣).
(٣) أخرجه أبو داود.

للذى يحدِّث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب ويلٌ له.. ويلٌ له» (١).

وقد فسر ابن عباس - حَبر الأمة وعالمها - رضى الله عنه وأرضاه - «الويل» قائلًا: ويلٌ: وادٍ فى جهنم تستغيث جهنم من شدة حره والعياذ بالله..

فتأمل أخى الحبيب إلى خطورة الكذب وإلى الوعيد الشديد الذى توعد به النبى ﷺ هؤلاء الكاذبين!!

وفى حديث سمرة بن جندب الطويل الذى فيه رؤيا النبى ﷺ قال فيه: «لكأنى رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخذا بيدى فأخرجانى إلى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد - قال بعض أصحابنا عن موسى - كلوب من حديد يدخله فى شدقه - حتى يبلغ قفاه ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله، قلت ما هذا؟ قالا: انطلق.. وفى آخر الحديث قال ﷺ: قلت: طوفتمانى الليلة فأخبرانى عما رأيت قالا: «نعم» أما الذى رأيته يشق شدقه فكذاب يحدِّث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة...» (٢).

وفى رواية للبخارى أنه قيل للنبى ﷺ: «... وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه.. ومنخره إلى قفاه.. وعينه إلى قفاه.. فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق» (٣) فتأمل هذا جيدًا أخى الحبيب - رحمنى الله وإياك، وعافانى الله وإياك.

الكذب فى الرؤيا أو الحُلم:

من الأمور التى تسبب شدة العذاب ومضاعفته الكذب فى الرؤيا أو الحلم فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال: «من تحلم بحُلم لم يره كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل ومن استمع إلى حديث قوم - وهم له

(١) أخرجه الترمذى (٤/٥٥٧) وانظر صحيح الترمذى (٢/٢٦٨).
(٢) البخارى (٢/١٠٤) والبخارى مع الفتح (٣/٢٥١).
(٣) البخارى مع الفتح (١٢/٤٣٩).

كارهون - أو يفرُّون منه صُبَّ فى أذنه الآنك يوم القيامة، ومن صَوَّر صورة عُذب وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ» (١).

ليس هذا من الكذب:

تواردت أحاديث نبوية شريفة فى إباحة بعض الكذب للمصلحة، وقد ضبط العلماء ما يباح منه، ومن الأحاديث النبوية الواردة فى هذه المسألة:

ما رُوى عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذَّابُ الذى يصلح بين الناس فيُنمى خيرًا أو يقول خيرًا» (٢).

وعن أم كلثوم أيضًا: «ولم أسمعه يرخص فى شىء مما يقول الناس إلا فى ثلاث: بمثل ما جعله يونس من قول ابن شهاب» (٣)

قلت: وقول ابن شهاب أنه قال: «ولم أسمعه يرخص فى شىء مما يقول الناس كذبًا إلا فى ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها» (٤).

وقد بيَّن الإمام أبو حامد الغزالى - رحمه الله - ذلك بقوله:

الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعًا فالكذب فيه حرام لعدم الحاجة إليه، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب ولم يكن بالصدق.. فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحًا، وواجب إن كان المقصود واجبًا..

فإذا اختفى مسلم من ظالم وسأل عنه وجب الكذب بإخفائه.. وكذا لو كان عنده أو عند غيره وديعة وسأل عنها ظالم يريد أخذها وجب عليه الكذب بإخفائها ولو استحلفه عليه لزمه أن يحلف ويورّى فى يمينه.. وهذا إن لم

(١) صحيح البخارى مع الفتح (١٢/ ٤٢٧).
(٢) البخارى (٣/ ١٦٦) ومسلم (٤/ ٢٠١١).
(٣) مسلم (٤/ ٢٠١٢).
(٤) مسلم (٤/ ٢٠١١) والأذكار للنووى (٣٢٤).

يحصل الغرض إلا بالكذب والاحتياط فى هذا كله ومعنى (التورية) أن يقصد بعبارته مقصودًا صحيحًا ليس هو كاذبًا بالنسبة إليه.. وإن كان كاذبًا فى ظاهر اللفظ ولو لم يقصد هذا بل أطلق عبارة الكذب فليس بحرام فى هذا الموضع، وكذا كلما ارتبط به غرض مقصود صحيح له أو لغيره فالذى له مثل: أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله ليأخذه فله أن ينكره، أو يسأله السلطان عن فاحشة بينه وبين الله تعالى فله أن ينكرها، وأما غرض غيره فمثل أن يسأل عن سر أخيه فينكره ونحو ذلك، وينبغى أن يقابل بين مفسدة الكذب والمفسدة المترتبة على الصدق، فإن كانت المفسدة فى الصدق أشد ضررًا فله الكذب، وإن كان عكسه أو شك حرم عليه الكذب...» (١)

وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله -: بعض ما رُوىَ عن السلف من المعاريض التى تخلصوا بها..

فروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: «إن فى معاريض الكلام ما يغنى الرجل عن الكذب» (٢)

وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال: «ما يسرنى بمعاريض الكلام حمر النعم» (٣)

وقال بعض السلف كان لهم كلام يدرءون به عن أنفسهم العقوبة والبلايا(٤).

وكان حماد - رحمه الله تعالى -: إذا جاء من لا يريد الاجتماع به وضع يده على ضرسه ثم قال: ضرسى.. ضرسى.

وقد لقى رسول الله ﷺ طليعة للمشركين وهو فى نفر من أصحابه فقال

(١) الأذكار للنووى (ص ٣٢٦).
(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٣٨١).
(٣) المصدر السابق (١/ ٣٨١).
(٤) إغاثة اللهفان (١/ ٣٨١).

المشركون: ممن أنتم؟ فقال النبى ﷺ: «نحن من ماء» فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا: أحياء اليمن كثيرة لعلهم منها وانصرفوا (١).

وأراد ﷺ بقوله «نحن من ماء» قول الله سبحانه وتعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾(٢).

وسئل أحمد عن المروزى وهو عنده ولم يرد أن يخرج إلى السائل فوضع أحمد أصبعه فى كفه وقال: ليس المروزى ههنا وماذا يصنع المروزى ههنا؟

ثم ذكر رحمه الله تعالى أن الحيل ثلاثة أنواع:

١ - نوع قربة وطاعة: وهو من أفضل الأعمال عند الله تعالى.

٢ - ونوع جائز مباح لا حرج على فاعله: ولا على تاركه وترجح فعله على تركه أو غير ذلك تابع لمصلحته.

٣ - ونوع هو محرم ومخادعة لله ورسوله.. متضمن لإسقاط ما أوجبه وإبطال ما شرعه وتحليل ما حرّمه وإنكار السلف والأئمة وأهل الحديث إنما هو لهذا النوع..»(٣).

فالنجاة.. النجاة عباد الله من كل قولٍ يخالف منهج الله سبحانه - أو يخالف هدى رسوله الكريم ﷺ.

إياكم والكذب.. إياكم والكذب!!

فإنه صفة من أرذل الصفات، وبلية من أعظم البليات، ومصيبة من أعظم المصائب.

خُلُق من الأخلاق السيئة التى ترضى الشيطان ولا ترضى الرحمن.

فبادروا بالتخلص والفرار من هذا الداء العضال وهذه الآفة المهلكة.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٥٥).
(٢) سورة الطارق (آية: ٦).
(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٣٨٤).

حقيقة الصدق:

قال عبد الواحد بن زيد: الصدق: الوفاء لله بالعمل.

وقيل الصدق: استواء السر والعلانية يعنى أن الكاذب علانيته خير من سريرته كالمنافق الذى ظاهره خير من باطنه.

وقيل: الصدق القول بالحق فى مواطن الهلكة.

هذا هو الصادق حقًا:

الصادق حقًا من كانت حياته كلها وفق منهج الله عز وجل.

فإن مطلوبه رضا ربه.. وتنفيذ أوامره.. وتتبع محابه.. فهو متقلب فيها يسير معها أينما توجهت ركائبها، ويستقل معها أينما استقلت مضاربها.

فبينما هو فى صلاة إذ رأيته فى ذكر ثم فى غزو ثم فى حج:. ثم فى إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفع.. ثم فى أمر بمعروف أو نهى عن منكر.. أو فى قيام بسبب فيه عمارة الدين والدنيا.. ثم فى عيادة مريض.. أو تشييع جنازة أو نصرة مظلوم - إن أمكن - إلى غير ذلك من أنواع القرب والمنافع فهو فى تفرق دائم لله وجميعه على الله [١].

فالهمة العالية فى مجال الصدق تعنى أن تجعل حياتك كلها قائمة على الحق والصدق حركاتك وسكناتك غدوك ورواحك.. الخطوات، والحركات، واللفظات، والمعاملات.

وبهذه الهمة تعلو الأمة وترتفع وتزدهر وتنال رضا ربها والقرب منه سبحانه وتعالى ويستقيم حالها وتنصلح أعمالها وتغفر ذنوبها وتكون عزيزة كريمة.

* * *

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٠٢).

الباب السابع
الهمة فى التوكل

يا لها من سعادة!!

من عَلِم أن الله على كل شئ قدير.. وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير.. وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه.. وأنه أعلم بمصلحته من العبد وأقدر على جلبها وتحصيلها منه.. وأنصح للعبد منه لنفسه.. وأرحم به من نفسه.. وأبر به من نفسه وعلم من ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدى تدبيره خطوة واحدة ولا يتأخر عن تدبيره له خطوة واحدة.. فلا متقدم له بين يدى قضائه وقدره ولا متأخر فألقى نفسه بين يديه وسلم الأمر كله إليه.. فاستراح حينئذ من الهموم والأنكاد والحسرات وحمل كله وحوائجه ومصالحه من لا يبالى بحملها ولا يثقله ولا يكترث بها.. فتولاها دونه وأراه لطفه وبره ورحمته وإحسانه فيها من غير تعب من العبد ولا نصب ولا اهتمام منه.. لأنه قد صرف اهتمامه كله إليه وجعله وحده همه فصرف عنه اهتمامه بحوائجه ومصالح دنياه وفرغ قلبه منها فما أطيب عيشه وما أنعم قلبه وأعظم سروره وفرحه!! (١)

تعريف التوكل على الله:

التوكل هو صدق اعتماد القلب على من يملك الأمر.. على الله سبحانه وتعالى فى جلب المنافع ودرء المفاسد فى الدنيا والدين مع الأخذ بجميع الأسباب المتاحة.. لأن الله تعالى هو الذى خلق السبب وهو الذى خلق المسبب وهو الذى يؤلف بين السبب والمسبب بقدرته وعزته.

---

(١) نقلًا عن كتاب الفوائد لابن قيم الجوزية (ص ١٥٥ : ١٥٦).

وفسره البعض بقوله: التوكل هو الثقة بالله.. والطمأنينة إليه.. والسكون إليه.

وقال بعضهم: التوكل أن ترد عليك موارد الفاقات فلا تسمو إلا إلى من إليه الكفايات.

وقيل: التوكل معناه نفى الشكوك والتفويض إلى مالك الملوك.

وقال بعضهم: التوكل هو التعلق بالله تعالى فى كل حال من الأحوال.

وقال أبو تراب النخشبى: التوكل هو طرح البدن فى العبودية.. وتعلق القلب بالربوبية.. والطمأنينة إلى الكفاية.. فإن أعطى شكر.. وإن منع صبر»[1].

وقال سهل - رضى الله عنه -: التوكل هو الاسترسال مع الله مع ما يريد سبحانه.

شروط التوكل الصحيح:

من خلال التعريفات السابقة للتوكل على الله يتبين أن التوكل الصحيح على الله عز وجل له مجموعة من الشروط من هذه الشروط ما يلى:

١ - الأخذ بجميع الأسباب المتاحة:

من شروط التوكل الصحيح على الله عز وجل عدم التقصير والكسل بل يجب الأخذ بجميع الأسباب المتاحة أولًا والجد والاجتهاد لأنه كما علمنا أن الله هو الذى خلق السبب وهو الذى خلق المسبب وهو الذى يؤلف بين السبب والمسبب بعزته وقدرته.

فقد كان الرسول الكريم ﷺ وهو سيد المتوكلين يأخذ بالأسباب.. فقد استأجر دليلًا مشركًا على دين قومه يدله على طريق الهجرة وقد هدى الله به

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (ص ٨٤ ج٢).

العالمين وعصمه من الناس أجمعين.. وكان يدخر لأهله قوتهم وهو سيد المتوكلين.. وكان إذا سافر فى جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد.. وكذلك كان حال أصحابه ﷺ وهم أهل التوكل حقًّا.. فحال النبى ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها بها يعلم صحيحها من سقيمها. فإن همهم فى التوكل أعلى من هم من بعدهم فإن توكلهم كان فى فتح بصائر القلوب وأن يعبد الله فى جميع البلاد وأن يوحده كل العباد..

وقد بين النبى ﷺ هذا الأمر للرجل الذى دخل عليه وترك ناقته فى الخارج بدون قيد فسأله النبى ﷺ: لماذا لم تقيد الناقة؟ قال الرجل: ثقة فى الله وتوكلًا عليه فقال النبى ﷺ كلمته المشهورة «يا رجل اعقلها وتوكل».

أى خذ بالأسباب المتاحة ثم توكل على الله فالأخذ بالأسباب هو عين التوكل.. ولنا فى السيدة «هاجر» رضى الله عنها أسوة حسنة فى هذا الأمر عندما نفد التمر والماء واشتد بكاء طفلها إسماعيل فى أرض الحجاز فى مكان قفر لا زرع ولا ضرع فنظرت إلى جبل الصفا وأخذت تهرول حتى صعدته فلم تجد شيئًا فنظرت إلى الجهة المقابلة إلى جبل المروة فاتجهت إليه وهى مجهدة متعبة فلما صعدت المروة لم تجد شيئًا فظلت تمشى سبعة أشواط بين الصفا والمروة.. وهنا لنا أن نتساءل: يا هاجر لما صعدت إلى الصفا فى المرة الأولى فلم تجدى ماء فذهبت إلى المروة فلم تجدى ماء فلم تكررين السعى هكذا سبعة أشواط وأنت قد علمت أنه لا يوجد ماء؟ وكأن هاجر تريد أن تعلمنا درسًا فى التوكل الصحيح على الله بأن يأخذ الإنسان أولًا بجميع الأسباب المتاحة.. فهاجر فى هذا الموقف لا تملك من أسباب الدنيا إلا السعى فسعت ولم تقصر ولذلك بعدها جاء الفرج من عند الله عز وجل ونزل الأمين جبريل وضرب الأرض بجناحيه تحت قدم الوليد إسماعيل عليه السلام فانفجرت بئر زمزم جزاءً على التوكل الصحيح والتسليم لأمر الله [١].

(١) سبق تخريج هذه القصة ارجع إلى (ص ١٦).

حقًا: إن التوكل الصحيح معناه الجد والاجتهاد وعدم التقصير والتكاسل.. فمعناه أولًا أن تأخذ بجميع الأسباب المتاحة لديك بعد ذلك الفرج يأتى من عند من يملك الأمر من عند الله رب العالمين.

ولذلك سُئل حاتم الأصم: كيف تعلمت التوكل على الله؟ قال: من أربعة أمور: «علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأنت به نفسى.. وعلمت أن عملى لا يعمله غيرى فأنا مشغول به.. وعلمت أن الموت يأتى بغتة فأنا أبادره.. وعلمت أنى لا أخلو من عين الله فأنا أستحى منه».

٢ - ثبات القلب فى مقام توحيد التوكل

وهذا معناه سلامة القلب من الأمور الشركية ومن العلل فحقيقة التوكل هو توحيد القلب واستقرار الإيمان فيه ومعرفة الله معرفة صحيحة فإن علم العبد أن بقاءه وخيره وسعادته بيد الله وأن النافع والضار هو الله وأن الأمر كله بيد الله توكل حتمًا على الله وكان توكله صحيحًا.

يقول ابن عباس رضى الله عنهما: كنت غلامًا صغيرًا وكنت خلف النبى ﷺ فقال: يا غلام: إنى أعلمك كلمات:

«احفظ الله يحفظك.. احفظ الله تجده تجاهك.. إن سألت فاسأل الله.. وإن استعنت فاستعن بالله.. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك.. ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك.. جفت الصحف ورفعت الأقلام».(١)

فحقيقة التوكل إذن معرفة الله حق المعرفة وتوحيده حق التوحيد والتسليم إليه سبحانه وتعالى وثبات القلب على ذلك.

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه.

٣ – اعتماد القلب على الله:

من شروط التوكل الصحيح صدق اعتماد القلب على الله تعالى بحيث لا يبقى فيه تشويش اضطراب من جهة الأسباب فلا يركن إليها ولكن يركن إلى مسببها عليه أن يأخذ بها ولكن لا يسكن إليها ولكن سكونه يكون إلى المسبب وهو الله عز وجل، وعلامة هذا أنه لا يبالى بإقبال الأسباب أو إدبارها ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها وإقبال ما يكره؛ لأن اعتماده على الله تعالى.. وسكونه إليه سبحانه واستناده إليه.. قد حصنه من خوفها ورجائها.

فحاله مثل الطفل الرضيع فى اعتماده وسكونه.. وطمأنينته بثدى أمه لا يعرف غيره وليس فى قلبه التفات إلى غيره.. كما قال بعض العارفين: «المتوكل كالطفل.. لا يعرف شيئًا يأوى إليه إلا ثدى أمه.. كذلك المتوكل لا يأوى إلا إلى ربه سبحانه وتعالى» (١).

٤ – معرفة الله معرفة صحيحة:

من شروط التوكل الصحيح معرفة الله معرفة صحيحة ومدارسة العقيدة وتوحيد الربوبية.. وتوحيد الألوهية.. وتوحيد الأسماء والصفات.. فتوحيد الربوبية باختصار شديد هو توحيد الله فى أفعاله.. فهو الخالق الرازق.. المعز المذل.. المعطى المانع.. الذى يملك الأمر كله.

وتوحيد الألوهية باختصار شديد توحيد الله فى أفعالك أنت فلا ركوع إلا لله ولا سجود إلا لله ولا نذر إلا لله ولا طاعة إلا لله رب العالمين ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ..﴾ (٢) وتوحيد الأسماء والصفات تعنى تنزيه الله عز وجل فى أسمائه وصفاته ومخالفته سبحانه وتعالى

---

(١) مدارج السالكين (ج٢/ ٨٩).
(٢) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣ .

للحوادث وتنزيهه عن كل نقص ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١) ومعرفته بالرب وصفاته.. من قدرته.. وكفايته.. وقيوميته.. وانتهاء الأمور إلى علمه.. وصدورها عن مشيئته وقدرته وهذه المعرفة هى أول درجة يضع بها العبد قدمه فى مقام التوكل.. المعرفة الصحيحة لله عز وجل.

ولذلك مر الإمام أبوحنيفة ذات يوم بالبادية فرأى امرأة عجوزًا تجلس على الرمال فأراد أن يختبر إيمانها، فقال: يا أمة الله ما الدليل على وجود الله؟ فنظرت المرأة العجوز إلى هذا السائل نظرة تعجب وقالت له: يا هذا إن الأثر يدل على المسير.. يا هذا إن البعرة تدل على البعير.. يا هذا يا هذا سموات ذات أبراج وأرض ذات فجاج.. وبحار ذات أمواج.. ألا يكفى هذا دليلًا على وجود العليم الخبير؟!!

٥ - حسن الظن بالله:

فعلى قدر حسن ظنك بالله عز وجل ورجائك له سبحانه وتعالى يكون توكلك عليه.. لأن حسن الظن يدعوك إلى التوكل عليه سبحانه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه.

* روى أن أعرابيًا مرض فقيل له: إنك تموت. فقال: أين يذهب بى؟ قالوا إلى الله. قال: وما كراهتى أن أذهب إلى من لا يُرى الخير إلا منه..(٢)

٦ - استسلام القلب لعظمة الله:

من شروط التوكل الصحيح على الله سبحانه وتعالى استسلام القلب لعظمة الله عز وجل، وباختصار أن يكون الإنسان بين يدى الله عز وجل كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف أراد، لا يكون له حركة ولا تدبير.. وهذا فيما يفعله الله عز وجل بك من أمور.. لا فيما أمرك بفعله والله أعلم.

---

(١) سورة الشورى (آية: ١١).
(٢) مدارج السالكين ج ٢ / ٨٩ .

٧ – التفويض لأمر الله:

والتفويض هو روح التوكل على الله عز وجل ومعناه إلقاء أمورك كلها إلى الله عز وجل كتسليم الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته به وكفايته له.. وحسن ولايته له.

ولقد لمس كثير ممن خالط المسلمين من الغربيين أثر هذا الجانب الاعتقادى – جانب الرضا بالقضاء – فى نفس المسلم واستقباله لكوارث الحياة وآلامها وتوكله على الله رب العالمين بنفس لا تتضعضع وقلب لا يتحطم.

من ذلك ما كتبه (ف. س. بودلى) تحت عنوان (عشت فى جنة الله) قال: (فى عام ١٩١٨م أوليت ظهرى للعالم الذى عرفته طيلة حياتى، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية.. حيث عشتُ بين الأعراب فى الصحراء وقضيت هناك سبعة أعوام.. أتقنت خلالها لغة البدو وكنتُ أرتدى زيهم وآكل من طعامهم وأتخذ مظاهرهم فى الحياة وغدوت مثلهم أمتلك أغنامًا وأنام كما ينامون فى الخيام وقد تعمقت فى دراسة الإسلام حتى إننى ألَّفت كتابًا عن محمد ﷺ عنوانه: (الرسول) وقد كانت تلك الأعوام التى قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سنين حياتى وأحفلها بالسلام والاطمئنان والرضا بالحياة.

وقد تعلمت من عرب الصحراء التغلب على القلق فهم – بوصفهم مسلمين – يؤمنون بقضاء الله وقدره وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش فى أمان وأخذ الحياة مأخذًا سهلًا هينًا.

فهم لا يلقون أنفسهم بين براثن الهم والقلق على أمر أنهم يؤمنون بأن ما قُدِّر يكون وأنه لا يصيب الفرد إلا ما كتب الله له، وليس معنى ذلك أنهم يتواكلون أو يقفون فى وجه الكارثة مكتوفى الأيدى كلا ودعنى أضرب مثلًا لما أعنيه:

هكذا يكون الرضا بالقضاء:

يضرب لنا الكاتب (ف. س. بودلى) مثالًا حيًا عن الرضا بقضاء الله تعالى

فيقول: (هبت ذات يوم عاصفة عاتية.. حملت رمال الصحراء.. وعبرت بها البحر الأبيض، ورمت بها وادى الرون فى فرنسا.. وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة حتى أحسست كأن شعر رأسى ينتزع من منابته لفرط وطأة الحر، وأحسست من فرط القيظ كأننى مدفوع إلى الجنون.. ولكن العرب لم يشكوا إطلاقًا.. فقد هزوا أكتافهم وقالوا كلمتهم المأثورة: (قضاء مكتوب) ولكنهم ما إن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودى القيظ بحياتها ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء فعلوا هذا كله فى صمت وهدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى.. قال رئيس القبيلة: (لم نفقد الشىء الكثير فقد كنا خلقاء بأن نفقد كل شىء، ولكن حمدًا لله وشكرًا، فإن لدينا نحو أربعين فى المائة من ماشيتنا وفى استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد)[١].

فالرضا نعمة روحية جزيلة هيهات أن يصل إليها جاحد بالله أو شاك فيه أو مرتاب فى جزاء الآخرة، إنما يصل إليها من قوى إيمانه بالله وحسن اتصاله به وقد خاطب الله سبحانه رسوله ﷺ بقوله:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[٢]

وامتن سبحانه وتعالى عليه بقوله:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[٣].

وقال رسول الله ﷺ:

«ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًا.. وبالإسلام دينًا.. وبمحمد نبيًا

(١) نقلًا عن كتاب الإيمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوى ١٣٦: ١٣٧ .
(٢) سورة (طه): ١٣٠ .
(٣) سورة (الضحى): ٥ .

ورسولًا»[١].

وأثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله:

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[٢].

٨ – الرضا بقضاء الله:

من شروط التوكل الصحيح على الله سبحانه الرضا بقضائه وحكمه والرضا هو ثمرة التوكل على الله عز وجل.

وقد سئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلًا؟

فقال: إذا رضى بالله وكيلًا.[٣]

وهذا معنى قول النبى ﷺ فى دعاء الاستخارة:

«اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم»[٤] فهذا توكل وتفويض.. ثم قال: «فإنك تعلم ولا أعلم.. وتقدر ولا أقدر.. وأنت علام الغيوب» فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة.. وتوسل إليه سبحانه وتعالى بصفاته التى هى أحب ما توسل إليه بها المتوسلون. ثم سأل ربه أن يقضى له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلًا أو آجلًا وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلًا أو آجلًا.. فهذه هى حاجته التى سألها.. فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له.. فقال:

«واقدر لى الخير حيث كان ثم رضّنى به».

فالتفويض لأمر الله وحكمه وقضائه هو علامة صحة التوكل على الله عز وجل، ثم الرضا بقضاء الله بعد التفويض فإن لم يرض بما قضى الله له فتفويضه

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذى.
(٢) سورة (البينة): ٨.
(٣) مدراج السالكين ج ٢ / ٩٠.
(٤) حديث الاستخارة رواه البخارى عن جابر رضى الله عنه، وانظر رياض الصالحين للنووى ص ٣١٩.

معلول وفاسد. وقد وردت أحاديث نبوية فى فضيلة الرضا بقضاء الله والحث عليه منها:

* قال رسول الله ﷺ:

«من سعادة المرء استخارته ربه.. ورضاه بما قضى.. ومن شقاء المرء تركه الاستخارة وعدم رضاه بعد القضاء»[١].

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض[٢]، ولكن الغنى غنى النفس»[٣].

الرضا بالقضاء مصدر العزة والقوة:

الرضا بالقضاء مصدر عزة ومصدر سعادة ومصدر قوة لصاحبه.

* وقد قال حكيم شرقى لأحد تلامذته: عش على أرز وماء متخذًا من ذراعك المطوية وسادة تكن نشوة النفس نصيبك.. وأما الثراء الذى ساءت وسائله والأمجاد التى جاءت عن طريق السوء كالسحائب العابرة لا خصب فيها ولا نماء[٤].

* وما حُكى عن المسيح - عليه السلام - أنه كان يقول:

(لباسى الصوف.. وطعامى الشعير.. وسراجى القمر.. ودابتى رجلاى.. ووسادتى ذراعى.. أبيت وليس لى شىء.. وأصبح وليس لى شىء وليس على وجه الأرض أغنى منى)[٥]!!

وصاحب هذه النفس القنوعة الراضية لا خوف عليه إنه يتغنى بما تغنى به الإمام الشافعى رضى الله عنه:

(١) رواه البزار ومعناه عند أحمد والترمذى .
(٢) العرض: المال .
(٣) متفق عليه
(٤) نقلًا عن كتاب (الإيمان والحياة) للدكتور يوسف القرضاوى ص ١٤٣ .
(٥) المصدر السابق ص ١٤٣ .

أنا إن عشتُ لستُ أُعدمُ قوتًا ... وإذا متُ لستُ أُعدم قبرًا
همتى همة الملوك ونفسى ... نفس حر ترى المذلة كفرًا
وإذا ما قنعتُ بالقوتِ عمرى ... فلماذا أخافُ زيدًا وعمرا؟

قصة وعبرة:

روى أنه كان هناك عابد فى عهد نبى الله موسى - عليه الصلاة والسلام - وكان هذا العابد لا يغفل عن ذكر الله ساعة. . فمرّ عليه نبى الله موسى ذات يوم فوجده يتعبد الله فقال نبى الله موسى عليه السلام: يا رجل ارفق بنفسك فإن الله غفور رحيم. . فقال العابد: يا نبى الله إننى أخشى أن أغفل عن ذكر الله ساعة فتوافينى المنية فألقى الله وأنا على غير الذكر.

فقال نبى الله موسى عليه السلام: يا رجل إنى ذاهب إلى ربى عز وجل أناجيه فهل لك حاجة؟ قال العابد: نعم يا نبى الله. .

قال موسى: وما حاجتك؟ قال العابد: سل ربى أن يلهمنى الصبر على حكمه والرضا بقضائه.

فذهب نبى الله موسى الكليم وناجى ربه عز وجل طويلًا ونسىَ حاجة العبد الصالح فذكّره علام الغيوب قائلًا: أنسيت حاجة صاحبك يا موسى؟ فقال موسى عليه السلام: سبحانك يا رب شغلنى جمال حديثك عن كل شىء حتى نسيت نفسى يا أكرم الأكرمين، وأنت أعلم بما قاله عبدك الصالح.

فقال الله عز وجل: يا موسى أخبر هذا العبد أنه من أهل النار مهما أكثر من الذكر ومهما أطال فى العبادة. . فتعجب نبى الله موسى عليه السلام، وذهب إلى العبد الصالح وقال: يا عبدالله إن الله يقول إنك من أهل النار مهما أكثرت من الذكر ومهما أطلت من العبادة فقال العبد الصالح: يا نبى الله إن كان هذا قضاء الله فالحمد لله على قضاء الله، وسأظل ببابه وإن طردنى فليس لى ملجأ سواه. . فذهب نبى الله موسى يناجى ربه وأخبره بما قاله العبد الصالح. . فقال الله عز وجل: يا موسى اذهب إلى عبدى وبشره أنه من أهل الجنة لأنه صبر

على حكمى ورضى بقضائى فذهب نبى الله موسى عليه السلام إلى العبد الصالح وقال: يا عبد الله أبشر فإن الله يقول: إنك من أهل الجنة لأنك صبرت على حكمه ورضيت بقضائه، فقال العبد الصالح: الحمد لله وشكرًا لله على قضائه وخر ساجدًا شاكرًا لله رب العالمين.

بمثل هذه النفس الراضية المطمئنة تعلو كلمة الحق وتنتصر المبادئ والرسالات.

التوكل فى القرآن الكريم:

أحبتى فى الله، بعد أن تحدثنا عن التوكل الصحيح وعن شروطه هيا بنا نطوف فى رياض القرآن الكريم يحدثنا عن هذا الخلق الكريم.

* قال الله تعالى آمرًا المؤمنين من عباده:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١)

* وقال عز من قائل:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٢)

* وجعل سبحانه لكل عمل ولكل طاعة ثوابًا وجزاء وجعل كفالته سبحانه وتعالى ثواب التوكل فقال فى محكم كتابه:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(٣)

* وقال سبحانه مبينًا جانبًا من صفات أوليائه:

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٤)

---

(١) سورة (المائدة): ٢٣ .
(٢) سورة (إبراهيم): ١١
(٣) سورة (الطلاق): ٣ .
(٤) سورة (الممتحنة): ٤ .

* وقال سبحانه لرسوله وحبيبه ومصطفاه:

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾(١)

*وقال أيضًا لرسوله الكريم ﷺ:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾(٢)

وقال أيضًا لرسوله ﷺ:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾(٣)

*وقال تعالى أيضًا للحبيب المجتبى ﷺ:

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٤)

*وقال سبحانه عن أنبيائه ورسله:

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ﴾(٥)

والقرآن مملوء من ذلك.

التوكل فى السنة المطهرة:

بعد أن طوفنا فى رياض القرآن الكريم مع التوكل والمتوكلين هيا بنا نطوف فى رياض السنة العطرة نقطف بعض الزهرات العطرات عن التوكل الصحيح:

* عن عمر رضى الله عنه - مرفوعًا -: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير.. تغدو خماصًا وتروح بطانًا»(٦).

وبين النبى ﷺ فى سنته عظيم ثواب التوكل على الله فقال فى ذلك:

(١) سورة (الملك): ٢٩ .
(٢) سورة (النساء): ٨١ .
(٣) سورة (الفرقان): ٥٨ .
(٤) سورة (آل عمران): ١٥٩ .
(٥) سورة (إبراهيم): ١٢ .
(٦) أخرجه الترمذى .

* قال رسول الله ﷺ: «يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، ثم قال: هم الذين لا يتطيرون، ولا يسترقون، ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون»(١).

وها هو الحبيب محمد ﷺ يعلمنا التوكل الصحيح من خلال مناجاته لربه عز وجل حيث يقول:

«اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إنى أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت: أن تضلنى أنت الحى الذى لا يموت. والجن والإنس يموتون»(٢).

وها هو الرسول الكريم ﷺ يعلمنا طريق الهداية والوقاية والكفاية، ففى الحديث:

* عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال - يعنى إذا خرج من بيته -: بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هُديت، ووقيت، وكفيت. فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدى وكُفى ووُقى؟»(٣)

فهذا غيض من فيض.. وقليل من كثير.. فى فضل التوكل الصحيح على الله رب العالمين.

من بدائع القصص النبوى فى التوكل على الله:

عن أبى هريرة رضى الله عنه: عن رسول الله ﷺ: أنه ذكر رجلًا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار.

المُقرض: ائتنى بالشهداء أُشهدهم.

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم ٣/ ٨٨ والترمذى ٩/ ٢٦٧ .
(٢) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .
(٣) رواه الترمذى والنسائى وأبو داود وابن ماجه .

المقترض: كفى بالله شهيدًا.

المقرض: فائتنى بالكفيل.

المقترض: كفى بالله كفيلا.

المقرض: صدقت.

يدفع الرجل للمقترض الألف دينار إلى أجل مسمى، فيخرج بها فى البحر، فإذا قضى حاجته، التمس مركبًا يركبه يَقدمُ عليه للأجل الذى أجّله، فلم يجد مركبًا، فيأخذ خشبة فينقرها فيُدخل فيها ألف دينار!!

وصحيفة منه إلى صاحبه.. ثم يُزجج موضعها (يَسُدَّه) ثم يأتى بها إلى البحر.

المقترض (آسفًا): اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلَّفت فلانًا (اقترضت منه) ألف دينار فسألنى كفيلًا فقلت: كفى بالله كفيلًا، فرضى بك وسألنى شهيدًا، فقلت كفى بالله شهيدًا، فرضى بك، وإنى جهدتُ (بذلت جهدى) أن أجد مركبًا أبعث إليه الذى له، فلم أقدر وإنى أستودعكها[١].

يرمى المقترض بالخشبة فى البحر حتى (تلج فيه)[٢] ثم ينصرف وهو فى ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده، فيخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبًا قد جاء بماله.. فإذا بالخشبة التى فيها المال فيأخذها لأهله حطبًا!! فلما نشرها وجد المال والصحيفة!!!

ثم يَقدمُ الذى كان أسلفه فيأتى بالألف دينار من جديد.

المقترض: والله ما زلت جاهدًا فى طلب مركب لآتيك بمالك.. فما وجدت مركبًا قبل الذى أتيتُ فيه.

---

(١) أستودعكها: أضعها أمانة عندك.

(٢) تلج فيه: تجرى فيه.

المقرض: هل كنت بعثت إلىَّ بشىء؟

المقترض: أخبرك أنى لم أجد مركبًا قبل الذى جئتُ فيه.

المقرض: فإن الله قد أدَّى عنك الذى بعثتَ فى الخشبة.

فانصرف بالألف دينار راشدًا[1].

فيا أصحاب الهمم العالية اعلموا: أن السعادة والفلاح والنجاح والعزة والسلامة والفرح فى التوكل الصحيح على رب الأرباب على الله عز وجل فتوكلوا عليه حق التوكل إن أردتم الفلاح.

* * *

(١) أصل القصة فى صحيح البخارى ج٣ ص ٥٦ .

الباب الثامن
الهمة فى العِزَّة

من الآثار الطيبة التى يضفيها الإسلام كمنهج إلهى على معتنقيه منذ اليوم الأول ثوب العزة. . فالمسلم قد حرّم عليه أن يهان أو يستذل أو يستضعف لأنه عزيز بعزة الإسلام قوى بإيمانه بالله تعالى. .

* قال تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾(١)

ويقول الله جل وعلا فى بيان صفات المؤمنين:

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾(٢)

فالمسلم تأبى عليه عزته أن يكون هدفًا لكل طامع أو غرضًا لكل مهاجم.

فالعزة من أهم الملامح التى تميز الإنسان المسلم وهذه العزة لا تكبر فيها ولا طغيان.

هكذا تكون العزة:

روى أن قائد جيش التتار أرسل خطابًا مشئومًا إلى قائد جيش المسلمين يطفح بالجهل والسخف والغرور والصلف يهدده فيه ويتوعده حتى يُسلِّم القائد المسلم ويرفع رايته البيضاء دون حرب أو لقاء ولا يدرى المسكين أن هؤلاء الرجال رباهم القرآن على العزة ورباهم رسول الله ﷺ على الشجاعة والمروءة. .

---

(١) سورة (آل عمران): ١٣٩ .
(٢) سورة (المائدة): ٥٤ .

فقال فى خطابه هذا:

من قائد جيش التتار إلى قائد جيش المسلمين

أما بعد..

فنحن قوم عددنا كالرمال.. وقلوبنا كالجبال.. من ذاق حربنا ندم.. ومن ذاق سِلْمنا أمِن.. نحن مالكو الأرض شرقًا وغربًا.. وآخذو كل سفينة غصبًا.

فلما وصل الخطاب إلى القائد المسلم وقرأ ما فيه من الهراء والغرور والكبرياء.

أمسك بالورقة والقلم ورد على الخطاب بخطاب، ولكن هناك فارقًا كبيرًا بين خطاب الحمقى والمغفلين، الكفرة المشركين الذين يغترون بقوتهم وبأسهم وعددهم وعُددهم.. وبين خطاب البررة المؤمنين الذين يستمدون العون من رب العالمين.

فقد قال القائد المسلم فى خطابه المبارك:

من قائد جيش المسلمين إلى قائد جيش التتار

أما بعد..

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ۖ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١)

يا هذا: لقد أرسلت إلىَّ خطابًا تصف نفسك فيه بصفات الشياطين لا بصفات السلاطين، فإنا لا محالة ملاقوكم.. وإنا لا محالة مقاتلوكم.. فإن انتصرنا عليكم فنِعم البضاعة.. وإن انتصرتم علينا فبيننا وبين الجنة ساعة.

(١) سورة (آل عمران): ٢٦ .

وكان النصر بعزة الله للمؤمنين الذين تعلموا العزة فى إسلامهم!! فمن صفات المسلم أنه إذا اعتدى عليه معتد أو طمع فيه طامع أو بغى عليه باغ كان انتصابه للدفاع عن نفسه وماله نوعًا من الجهاد. مصداق ذلك قول الله تعالى فى وصف عزة المسلم ونبذه للظلم والبغى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾(١).

وا معتصماه!! وا معتصماه!!

يا له من نداء!! أصبح علامة على عزة الإسلام والمسلمين.

وا معتصماه.. وا معتصماه.. نداء مهيب مهيب صدر من امرأة مسلمة موحدة وقعت أسيرة فى جيش الرومان فى إحدى المعارك مع المسلمين فى خلافة (المعتصم) ذلكم الرجل الذى تربى وتعلم على مائدة القرآن الكريم، وهدى النبى العظيم ﷺ.

ولما علم المعتصم بالله بهذا الأمر إذا به يرسل رسالة مهيبة لقائد جيش الروم قال فيها:

من المعتصم بالله خليفة المسلمين إلى كلب الروم

أما بعد..

بلغنى أن امرأة مسلمة وقعت أسيرة فى جيشكم، فوالله الذى لا إله غيره إن لم ترسل المرأة الموحدة إلى ديارها معززة مكرمة لأرسلن لك جيشًا أوله عندكم وآخره عندنا. فلما وصلت الرسالة إلى قائد جيش الروم وقرأها ارتعدت فرائصه من الخوف وعلى الفور أرسل المرأة المسلمة معززة مكرمة إلى ديارها فى صحبة مجموعة من نسوة الرومان لأنه يعلم عزة هذا الدين وعزة رجاله ومعتنقيه.

حقًا إنها عزة الإسلام:

فى حديث عبد الله بن حذافة - رضى الله عنه - أنه أسره الروم.. فحبسه

(١) سورة (الشورى): ٣٩.

طاغيتهم فى بيت، فيه ماء ممزوج بخمر.. ولحم خنزير مشوى ليأكله ويشرب الخمر، وتركه ثلاثة.. فلم يفعل.. ثم أخرجوه حين خشوا موته، فقال: (والله أحله لى لأنى مضطر ولكن لم أكن لأشمتكم بدين الإسلام)

وعبد الله بن حذافة السهمى صحابى توفى بمصر ودفن بمقبرتها وذلك فى خلافة عثمان بن عفان – رضى الله عنه – وقصته مع ملك الروم حكاها أبو رافع قال:

(وجه عمر جيشًا إلى الروم.. فأسروا عبد الله بن حذافة فذهبوا به إلى ملكهم فقالوا: (إن هذا من أصحاب محمد). فقال: (هل لك أن تتنصر وأُعطيك نصف ملكى؟) قال: (لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملك العرب ما رجعتُ عن دين محمد طرفة عين). قال: (إذن أقتلك) قال: (أنت وذاك) فأمر به فصُلب، وقال للرماة: (ارموه قريبًا من بدنه) وهو يعرضُ عليه، ويأبى، فأنزله ودعا بقدر فصب فيها ماء حتى احترقت ودعا بأسيرين من المسلمين فأمر بأحدهما فأُلقى فيها وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى ثم بكى فقيل للملك (إنه بكى) فظن أنه قد جزع، فقال: (ردوه ما أبكاك؟) قال: (قلت: هى نفس واحدة تُلقى الساعة فتذهبُ فكنت أشتهى أن يكون بعدد شعرى أنفس تلقى فى النار فى الله) فقال له الطاغية: (هل لك أن تقبل رأسى وأخلى عنك؟) فقال له عبد الله: (وعن جميع الأسارى؟) قال: نعم، فقبَّل رأسه وقَدِم بالأسارى على عمر فأخبره خبره فقال عمر رضى الله عنه: (حق على كل مسلم أن يقبَّل رأس ابن حذافة وأنا أبدأ فقبَّل رأسه)[1]

إنه نموذج فريد للعزة فمن الذى ربى هؤلاء الرجال ومن الذى علمهم؟ الذى رباهم والذى علمهم رسول الإنسانية ومعلم البشرية محمد ﷺ.. وبمثل هذه العزة تعلو الأمة وترتفع وترقى!!

(١) انظر (أسد الغابة) ٣/ ٢١٢: ٢١٣ ط . الشعب .

الباب التاسع
الهمة فى الجهاد

الجهاد فى سبيل الله ذورة سنام الإسلام وقبته.. ومن أشرف الأعمال وأحبها إلى الله تعالى:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾(١)

ومنازل أهله أعلى المنازل فى الجنة كما لهم الرفعة فى الدنيا، فهم الأعلون فى الدنيا والآخرة.

* فعن سلمان الفارسى - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه.. وإن مات فيه جرى عليه عمله الذى كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان»(٢)

فالجهاد فى سبيل الله هو قبة الإسلام التى تحميه من اعتداء المعتدين ومن ظلم الظالمين.. ومن طمع الطامعين.. ومن حقد الحاقدين.

من أجل ذلك هيا بنا نطوف مع الرعيل الأول نشير إلى بعض مناقبهم.. وحسن بلائهم نريد بذلك أن نشحذ الهمم.. وأن نوقظ الهمم الرُّقَّد.. وأن نُنهِض العزم المُقعد.. ومن طمحت نفسه إلى الاستزادة فليطلب ذلك فى مظانه المبسوطة وبالله الاستعانة وعليه التكلان.

سيد المجاهدين ﷺ:

لقد كان الحبيب محمد ﷺ سيد المجاهدين وخير من رفع راية الجهاد..

---

(١) سورة (الصف): ٤

(٢) رواه مسلم ١٣/ ٦١ والترمذى ٧/ ١٦٢ (الفتان: منكر ونكير).

فكان رسول الله ﷺ فى الذروة العليا منه.

فاستولى الحبيب ﷺ على أنواعه كلها.. فجاهد فى الله حق جهاده بالقلب والجنان.. والدعوة والبيان.. والسيف والسنان.. وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده ولهذا كان أرفع العالمين ذكرًا وأعظمهم عند الله قدرًا.

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(١)

لقد كان رسول الله ﷺ أعلى البشر همة على الإطلاق وكان أشجع الناس وأقواهم قلبًا.. كان مقدامًا دائمًا.. لم يفر قط وحاشاه من ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٢)

*وعن أنس رضى الله عنه وأرضاه.. قال:

«كان رسول الله ﷺ أحسن الناس.. وكان أجود الناس.. وكان أشجع الناس.. ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قِبَل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبى طلحة عُرْى وفى عنقه السيف وهو يقول: «لم تراعوا.. لم تراعوا».

* وقال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه:

«كنا إذا اشتد البأس.. واحمرت الحَدَقُ اتقينا برسول الله ﷺ. فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه.. ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا»

* وقيل: كان الشجاع هو الذى يقرب منه ﷺ إذا دنا العدو لقربه منه.. اللهم صلِّ وسلم على سيد المجاهدين وقائد الغر الميامين.

(١) الأحزاب: ٢١ .
(٢) القلم: ٤ .

وكذلك أصحاب النبى ﷺ كانوا أشجع الشجعان، كانوا أبطالًا أفذاذًا فى كل ميدان.. فإليك عزيزى القارئ هذه النماذج المضيئة للهمة العالية.

نِعمَ الرجل كنت يا نعمان:

كانت أنباء المعارك الدائرة فى الميدان الشرقى (ميدان فارس) تثير قدرًا كبيرًا من الاهتمام والتحفز ولم تكن (المدينة) عاصمة الإسلام الناهض تجهل النتائج الخطيرة التى تتمخض عنها هذه الملاحم الطاحنة فقد صمم أمير المؤمنين على وضع حد حاسم لطغيان الأكاسرة فى أرجاء ملكهم الرحيب وساق فرقًا إسلامية عديدة لتحقيق هذه الغاية الكريمة.

وكم شهدت رمال الجزيرة مئات الألوية وهى تخفق فوق الرجال الذين نيطت بأعناقهم هذه الرسالة.. وكم صمتت وهادها ونجادها، ولفها السكون الرهيب فى انتظار أخبار المجاهدين ساعة بعد ساعة. لقد أقدم العرب على عمل هائل وأعلنوا قوى الضلال كلها بالعداوة السافرة.. فلم تمض أعوام قلائل على وفاة نبى الإسلام حتى فتحت أمته جبهة للقتال ثم جبهة أخرى ثم تشعبت الميادين واتسعت أمامها.. لأن الباطل فى هذه الدنيا لا يستسلم أبدًا حتى تتناوله اللطمات القاسية الموجعة.. وكذلك كان حال كسرى ومن معه.. فإن آخر ما وصل إلى عمر من أنباء يشير إلى أن انتصارات المسلمين الكثيرة لم تسحق رأس الكفر بعد ورغم الجهد العصيب الذى بذله المسلمون فى الاندفاع إلى الأمام فإن خطتهم لم تنفذ بأكملها كما ينبغى.

ودخل (عمر) المسجد.. وأرسل بصره القوى فى جنباته فلمح (النعمان) يصلى وكانت رؤية النعمان كفيلة بأن يستقر رأى أمير المؤمنين على القائد الذى سيكتب الفصل الحاسم لملك الأكاسرة.. فما لبث أن سار حتى جلس بجوار المصلى العظيم.

وما أن فرغ النعمان من صلاته حتى بادره قائلًا: لقد انتدبتك لعمل! واستمع النعمان لمشيئة أمير المومنين، ثم أجاب:

إن يكن جباية للضرائب فلا.. وإن يكن جهادًا فى سبيل الله فنعم...

فأظهر عمر قراره.. إنه جهاد وأى جهاد، وما أصدق بصيرة الخليفة التى دلته على مثل هذا الرجل.. رجل ليست له نفسية كبار الموظفين فى هذه العصور من كل مترف يدمى بنانه إمساك القلم ولا يحسن إلا التبطل أو معالجة أتفه الأمور.. كلا! ليس ابن مقرن ممن يسارعون إلى مثل هذه الأعمال لأنه رجل مسلم والرجال المسلمون ينظرون دائمًا إلى معالى الأمور وفى الساحة التى ارتوى ثراها بالدماء الغزيرة تولى النعمان إدارة المعركة وكان جيش العدو كثيف العدد.. بادى اليقظة.. عسير المنال. وحاول أركان حرب النعمان يومًا أن يحملوه على الإسراع فى منازلة العدو.. ولكنه خاطبهم: تريثوا حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر.. ذلك أن وهج الظهيرة كان شديد اللفح فما أن هبت طلائع الأصيل حتى صاح القائد المؤمن: أيها الناس إنى هاز لوائى ثلاثًا فأما أول هزة فليتوضأ كل جندى، وأما الثانية فليعد سلاحه، وأما الثالثة فاحملوا ولا يلوين أحد على أحد وإن قتل النعمان.. وإنى راغب إلى الله بدعوة وأقسم على كل امرئ منكم أن يؤمن عليها: اللهم ارزق النعمان شهادة فى نصر عظيم وفتح على المسلمين. فأمن القوم.. ثم هزَّ لواءه ثلاثًا وتقدم الرجل صفوف الغزاة فى زحف متتابع الحملات.. جياش بالإيمان والتضحية. قد رص القرآن بنيان أصحابه فلم يقو على رد عزائمهم كل ما حشد الأكاسرة من قوى مختلطة واطرد اندفاع المسلمين فى نواحى الميدان كلها.. ثم أطبقت أجنحتهم على أعدائهم إطباقة عارمة كان معها النصر الغالى، والفتح الكريم.

ولكن أين النعمان صاحب هذه الروح؟ لقد كان أول صريع!

وصادفه أحد جنوده الأبطال وما زال به رمق فاستحضر بسرعة إداوة ليغسل منها وجه الجريح النبيل.. وإذ يعاود النعمان شعوره العازب من هول ما أصابه يسائل مسعفه من أنت؟

* معقل بن يسار.

* ما فعل الله بالناس؟

* فتح الله للمسلمين.

قال: الحمد لله كثيرًا.. اكتبوا بذلك إلى عمر.. وفاضت نفسه الكريمة إلى خالقها وبارئها.

كذلك كان مصرع رجل من أصحاب محمد ﷺ وممن تربوا فى مدرسته القرآنية وصدقت فراسة عمر رضى الله عنه ففى موقعة (نهاوند) كتب الفصل الختامى لدولة الأكاسرة.

*** عمير بن الحمام والهمة العالية.**

عن أنس رضى الله عنه قال: (انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر.. وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ: «لا يقدمن أحد منكم إلى شىء حتى أكون أنا دونه» فدنا المشركون.. فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» قال عمير بن الحمام: (يا رسول الله: جنة عرضها السموات والأرض!» قال: نعم. قال: (بخٍ، بخٍ)[1] فقال رسول الله ﷺ:

«ما يحملك على قولك: بخ بخ؟» قال: لا والله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها». فأخرج تمرات من قرنه.. فجعل يأكل منهن، ثم قال: «أنا إن حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل»[2]

هكذا تكون الهمة العالية.

---

(١) كلمة تُقال عند الرضا والإعجاب بالشىء .

(٢) رواه مسلم .

إيمان كالجبال الرواسى:

لما استشار النبى ﷺ أصحابه رضى الله عنهم فى القتال فى غزوة بدر الكبرى. قال له (المقداد بن الأسود) رضى الله عنه:

(يا رسول الله امضِ لما أراك الله فنحن معك.. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[١]

ولكن نقول: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون)[٢]

* وقال (سعد بن معاذ) رضى الله عنه وأرضاه:

(فامض لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد.. وما نكره أن نلقى عدونا غدًا إنا لصبرٌ فى الحرب.. صُدقٌ عند اللقاء.. لعل الله يُريك ما تقر به عينك فسِر على بركة الله)[٣]

إنها قلوب من طراز عجيب.. قلوب كان الإيمان فيها كالجبال الرواسى.. قلوب طالما اشتاقت إلى جنة الله دار الكرامة والفلاح والسعادة.

شيخ عزم على أن يطأ بعرجته الجنة:

إنه صحابى جليل كان فى الجاهلية يسجد للأصنام والأوثان من دون الواحد الديان واتخذ لنفسه صنمًا يُدعى (مناة) وقد اتخذه من نفيس الخشب.. وكان شديد الإسراف فى رعايته والعناية به وتضميخه[٤] بنفائس الطيب وعندما هداه الله تعالى للإسلام وتذوق هذا الصحابى الجليل من حلاوة الإيمان ما جعله يعضُّ بنان الندم على كل لحظةٍ قضاها فى الشرك فأقبل على الدين الجديد

(١) سيرة ابن هشام، سورة (المائدة): الآية ٢٤ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) ضمخ الشيء بالطيب: دهنه به .

بجسده وروحه ووضع نفسه وماله وولده فى طاعة الله وطاعة رسوله إنه الصحابى الجليل (عمرو بن الجموح) فهيا بنا نطوف معه لنرى همته العالية.

فما هو إلا قليل حتى كانت (أُحُدٌ) فرأى (عمرو بن الجموح) أبناءه الثلاثة يتجهزون للقاء أعداء الله ونظر إليهم غادين رائحين كأسد الشَّرى[١] وهم يتوهجون شوقًا إلى نيل الشهادة والفوز بمرضاة الله فأثار الموقف حميته وعزم على أن يغدو معهم إلى الجهاد تحت راية رسول الله ﷺ، لكن الفتية أجمعوا على منع أبيهم مما عزم عليه.

فهو شيخ كبير طاعن فى السن وهو إلى ذلك أعرج شديد العرج، وقد عَذَره الله عز وجل فيمن عذرهم.

فقالوا له:

يا أبانا إنَّ الله عَذَرك، فعلام تُكلِّفُ نفسك ما أعفاك الله منه؟!

فغضب الشيخ من قولهم أشد الغضب، وانطلق إلى رسول الله ﷺ يشكوهم فقال:

يا نبى الله إن أبنائى هؤلاء يريدون أن يحبسونى عن هذا الخير وهم يتذرعون[٢] بأنى أعرج والله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه الجنَّةَ.

فقال رسول الله ﷺ لأبنائه:

دعوه، لعل الله عز وجل يرزقُهُ الشهادة.. فخلَّوا عنه إذعانًا لأمر رسول الله ﷺ.

وما إن أزف[٣] وقت الخروج حتى ودَّعَ (عمرو بن الجموح) زوجته وداع مفارق لا يعود.

---

(١) أسد الشرى: أسد الغابة.
(٢) يتذرعون: يحتجون.
(٣) أزِفَ: حان.

ثم اتجه إلى القبلة ورفع كفيه إلى السماء وقال:

(اللهم ارزقنى الشهادة ولا تردنى إلى أهلى خائبًا)

ثم انطلق يحيط به أبناؤه الثلاثة.. وجموع كثيرة من قومه بنى سَلِمَة.

ولما حمى وطيس[١] المعركة وتفرق الناس عن رسول الله ﷺ شُوهد (عمرو ابن الجموح) يمضى فى الرعيل الأول ويثب على رجله الصحيحة وثبًا وهو يقول:

إنى لمشتاق إلى الجنة... إنى لمشتاق إلى الجنة

وكان وراءه ابنه (خلاد)

وما زال الشيخ وفتاه يجالدان عن رسول الله ﷺ حتى خرًا صريعين شهيدين على أرض المعركة ليس بين الابن وأبيه إلا لحظات.

وما إن وضعت المعركة أوزارها[٢] حتى قام رسول الله ﷺ إلى شهداء أحد ليواريهم ترابهم فقال لأصحابه:

«خلوهم بدمائهم وجراحهم.. فأنا الشهيد عليهم..» ثم قال:

«ما من مسلم يُكلم[٣] فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة يسيل دمًا.. اللون كلون الزعفران والريحُ كريح المسك» ثم قال:

ادفنوا عمرو بن الجموح مع عبد الله بن عمرو فقد كانا متحابين متصافيين فى الدنيا»[٤].

رضى الله عن عمرو بن الجموح وأصحابه من شهداء أحد ونوَّر لهم فى قبورهم.

---

(١) الوطيس: التنور ووطيس المعركة نارها.

(٢) وضعت المعركة أوزارها: توقفت وانتهت.

(٣) يُكلم: يجرح.

(٤) للاستزادة من أخبار عمرو بن الجموح، انظر الإصابة، الترجمة: ٥٧٩٩ - صفة الصفوة ١/ ٢٦٥.

هو الشهيد.. وأبو الشهيد:

إنه الصحابى الجليل (الطُفيل بن عمرو الدوسى) سيد قبيلة دوس فى الجاهلية وشريف من أشراف العرب المرموقين وواحد من أصحاب المروءات المعدودين.. لا تنزل له قدر عن نار، ولا يوصد له بابٌ أمام طارق..

يُطعم الجائع ويُؤمِّن الخائف.. ويُجير المستجير.. وهو إلى ذلك أديب أريب[١] لبيب.. وشاعر مرهف الحس.. رقيق الشعور.. بصير بحلو البيان ومره.. حيث تفعل فيه الكلمة فعل السحر.

فهيا بنا نجلس أمام هذا البطل وابنه الفذّ (عمرو بن الطفيل) فى أدب وخشوع لنتعلم كيف تكون الهمة العالية فى خدمة دين الله وفى إعلاء كلمة الله.

* لما نشبت حروب الردة نَفَر[٢] (الطفيل بن عمرو الدوسى) فى طليعة جيش المسلمين لحرب (مسيلمة الكذاب) ومعه ابنه البطل المقدام (عمرو بن الطفيل).

وفيما هو فى طريقه إلى اليمامة رأى رؤيا فقال لأصحابه:

إنى رأيت رؤيا فعبِّروها لى.

فقالوا: وما رأيت

قال: رأيت أن رأسى قد حُلق.. وأن طائرًا خرج من فمى.. وأن امرأة أدخلتنى فى بطنها.. وأن ابنى عمرًا جعل يطلبنى حثيثًا لكنه حِيل[٣] بينى وبينه، فقالوا خيرًا.. فقال:

أما أنا - والله - لقد أوَّلتُها:

أما حلق رأسى فذلك أنه يُقطع..

(١) أريب لبيب: ذكى فطن.
(٢) نَفَرَ: خرج للقتال.
(٣) حِيل بينى وبينه: وضع حائل بينى وبينه فلم يدخل معى.

وأما الطائر الذى خرج من فمى فهو روحى..

وأما المرأة التى أدخلتنى فى بطنها فهى الأرض تُحفر لى فأدفن فى جوفها..

وأما طلب ابنى لى فهو يعنى أنه يطلب الشهادة التى سأحظى بها - إذا أذِن الله لكنه يُدركها فيما بعد.

وفى معركة اليمامة أبلى الصحابى الجليل (الطفيل بن عمرو الدوسى) أعظم البلاء حتى خر صريعًا شهيدًا على أرض المعركة.

وأما ابنه (عمرو) فما زال يقاتل حتى أثخنته[١] الجراح وقُطعت كفه اليمنى فعاد إلى المدينة مُخلفًا على أرض اليمامة أباه ويده.

وفى خلافة الفاروق (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه دخل عليه (عمرو بن الطفيل) فأتى للفاروق بطعام والناس جلوس عنده فدعا القوم إلى طعامه، فتنحى (عمرو بن الطفيل) عنه فقال له الفاروق:

ما لك؟!

لعلك تأخرت عن الطعام خجلًا من يدك.

قال: أجل[٢] يا أمير المؤمنين.

قال الفاروق: والله لا أذوق هذا الطعام حتى تَخلطه بيدك المقطوعة..

والله ما فى القوم أحدٌ بعضه فى الجنة إلا أنت يريد بذلك يده.

وظل حُلم الشهادة يلوح (لعمرو بن الطفيل) منذ فارق أباه فلما كانت معركة (اليرموك)[٣] بادر إليها (عمرو) مع المبادرين وما زال يقاتل حتى أدرك الشهادة التى مناه بها أبوه.

---

(١) أثخنته الجراح: أضعفته وأوهنت قواه.

(٢) أجل: نعم.

(٣) اليرموك: معركة بين المسلمين والروم، انتصر فيها المسلمون عام ١٥ هـ.

رحم الله (الطفيل بن عمرو الدوسى) فهو الشهيد وأبو الشهيد[١]. . بمثل هذه الروح تعلو الأمة وترقى.

فتى الأنصار البراء بن مالك الأنصارى:

كان أشعث أغبر[٢] ضئيل الجسم معروق العظم[٣] تقتحمه[٤] عين رائيه ثم تزور[٥] عنه ازورارا.

لكنه مع ذلك. . قتل مائة من المشركين مبارزة وحده. . عدا الذين قتلهم فى غمار المعارك مع المحاربين.

إنه الكَمِى الباسل المِقدام الذى كتب الفاروق بشأنه إلى عماله فى الآفاق:

(ألا يُوَلُّوه على جيش من جيوش المسلمين خوفًا من أن يهلكهم بإقدامه) إنه الصحابى الجليل والبطل المقدام. . والعملاق الفذ. . (البراء بن مالك الأنصارى) أخو (أنس بن مالك) خادم رسول الله ﷺ.

ولو رحنا نستقصى أخبار بطولاته لطال الكلام ولضاق المقام لذا هيا بنا نجلس فى أدب وخشوع أمام هذا البطل المغوار نعرض لقصة واحدة من قصص بطولاته وهذه القصة تخبرنا عما عداها. .

(تبدأ هذه القصة منذ الساعات الأولى من وفاة النبى ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى حيث طفقت قبائل العرب تخرج من دين الله أفواجًا كما دخلت فى هذا الدين أفواجًا. . حتى لم يبق على الإسلام إلا أهل مكة والمدينة والطائف وجماعات متفرقة هنا وهناك ممن ثَبَّت الله قلوبهم على الإيمان.

---

(١) للاستزادة من أخبار الطفيل بن عمرو انظر الإصابة، الاستيعاب ١/ ٢١١، أسد الغابة ٣/ ٥٤، صفة الصفوة ١/ ٢٤٥ .
(٢) أشعث أغبر: متلبد الشعر أغبر الجسم .
(٣) معروق العظم: مهزول الجسم قليل اللحم .
(٤) تقتحمه: لا تتهيب النظر إليه .
(٥) تزور: تميل وتنحرف .

صمد الصديق رضوان الله عليه لهذه الفتنة المدمرة العمياء صمود الجبال الرواسى.. وجهَّز من المهاجرين والأنصار أحدَ عشر جيشًا.. وعقد لقادة هذه الجيوش أحد عشر لواءً.. ودفع بهم فى أرجاء جزيرة العرب ليُعيدوا المرتدين إلى سبيل الهدى والحق... وليحملوا المنحرفين على الجادة بحد السيف.

وكان أقوى المرتدين بأسًا وأكثرهم عددًا بنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب. فقد اجتمع لمسيلمة من قومه وحُلفائهم أربعون ألفًا من أشداء المحاربين. وكان أكثر هؤلاء قد اتَّبعوه عصبية[١] له لا إيمانًا به فقد كان بعضهم يقول: أشهد أن مسيلمة كذابٌ.. ومحمدًا صادق.. لكن كذاب ربيعة[٢] أحب إلينا من صادق مُضر[٣].

هَزَم مسيلمة أول جيش خرج إليه من جيوش المسلمين بقيادة الصحابى الجليل (عكرمة بن أبى جهل) ورده على أعقابه.

فأرسل له الصديق جيشًا ثانيًا بقيادة البطل المقدام (خالد بن الوليد) حشد فيه وجوه الصحابة من الأنصار والمهاجرين وكان فى طليعة هؤلاء (البراء بن مالك الأنصارى) ونفر من كماة المسلمين.

التقى الجيشان على أرض اليمامة فى نجد فما هو إلا قليل حتى رجحت كفة مسيلمة وأصحابه وزُلزت الأرضُ تحت أقدام جنود المسلمين وطفقوا يتراجعون عن مواقفهم حتى اقتحم أصحاب مسيلمة فسطاط[٤] خالد بن الوليد واقتلعوه من أصوله وكادوا يقتلون زوجته لولا أن أجارها واحد منهم.

عند ذلك شعر المسلمون بالخطر الداهم[٥] وأدركوا أنهم إن يهزموا أمام

---

(١) العصبية: شدة ارتباط المرء بعصبته ونصرتها فى الحق والباطل.
(٢) كذاب ربيعة: مُسيلمة الكذاب.
(٣) صادق مضر: محمد ﷺ.
(٤) الفسطاط: الخيمة الكبيرة.
(٥) الخطر الداهم: الخطر الشديد المفاجئ.

مسيلمة فلن تقوم للإسلام قائمة بعد اليوم. . ولن يُعبد الله وحده لا شريك له فى جزيرة العرب.

وهب خالد إلى جيشه فأعاد تنظيمه حيث ميز المهاجرين عن الأنصار. . وميز أبناء البوادى عن هؤلاء وهؤلاء.

وجمع أبناء كل أب تحت راية واحد منهم ليُعرف بلاء كل فريق فى المعركة وليُعلم من أين يؤتى المسلمون[١].

ودارت بين الفريقين رحى معركة ضروس شديدة لم تعرف حروب المسلمين لها نظيرًا من قبل وثبت قوم مسيلمة فى ساحات الوغى ثبات الجبال الراسيات. .

ولم يأبهوا[٢] لكثرة ما أصابهم من القتل. وأبدى المسلمون من خوارق البطولات ما لو جُمع لكان ملحمة[٣] من روائع الملاحم.

* فهذا (ثابت بن قيس) حامل لواء الأنصار يتحنط ويتكفن ويحفر لنفسه حفرة فى الأرض فينزل فيها إلى نصف ساقيه ويبقى ثابتًا فى موقفه يجالد عن راية قومه حتى خر صريعًا شهيدًا.

* وهذا (زيد بن الخطاب) أخو (عمر بن الخطاب) رضى الله عنهما ينادى فى المسلمين:

(أيها الناس عضوا على أضراسكم. . واضربوا فى عدوكم. . وامضوا قدمًا. . أيها الناس. . والله لا أتكلم بعد هذه الكلمة أبدًا حتى يُهزم مسيلمة أو ألقى الله فأدلى إليه بحجتى.

ثم كرَّ على القوم فما زال يقاتل حتى قتل.

---

(١) يؤتى المسلمون: من أين يصابون.
(٢) لم يأبهوا: لم يهتموا ولم يلتفتوا.
(٣) الملحمة: عمل شعرى كبير ينظم فى وصف الحروب وجيوشها وأبطالها.

* وهذا (سالم) مولى أبى حذيفة يحمل راية المهاجرين فيخشى عليه قومه أن يَضعُفَ أو يتزعزع فقالوا له:

(إنا لنخشى أن نؤتى من قبلك) فقال:

(إن أُتيتم من قبلى فبئس حامل القرآن أكون..)

ثم كرَّ على أعداء الله كرة باسلة حتى أصيب.

ولكن بطولات هؤلاء الأصحاب الكرام الأفذاذ تتضاءل أمام بطولة (البراء بن مالك) رضى الله عنه وعنهم أجمعين.

ذلك أن خالدًا حين رأى وطيس المعركة يحمى ويشتد التفت إلى (البراء بن مالك) وقال: إليهم يا فتى الأنصار..

فالتفت (البراء) إلى قومه وقال:

(يا معشر الأنصار لا يفكرن أحد منكم بالرجوع إلى المدينة فلا مدينة لكم بعد اليوم، وإنما هو الله وحده.. ثم الجنة..)

ثم حمل على المشركين وحملوا معه وانبرى يشق الصفوف ويُعمِل السيف فى رقاب أعداء الله حتى زُلزلت أقدامُ مسيلمة وأصحابه فلجئوا إلى الحديقة التى عُرفت فى التاريخ بعد ذلك باسم حديقة الموت لكثرة من قُتل فيها فى ذلك اليوم.

كانت حديقة الموت هذه رحبة الأرجاء سامقة[1] الجدران.. فأغلق مسيلمة والآلاف المؤلفة من جنده عليهم أبوابها وتحصنوا بعالى جدرانها وجعلوا يمطرون المسلمين بنبالهم من داخلها فتتساقط عليهم تساقط المطر.

عند ذلك تقدم مغوار المسلمين الباسل (البراء بن مالك) وقال:

(يا قوم ضعونى على تُرس وارفعوا التُّرس على الرماح ثم اقذفونى إلى

(١) سامقة: عالية.

الحديقة قريبًا من بابها فإما أن أستشهد وإما أن أفتح لكم الباب.

وفى لمح البصر جلس (البراء بن مالك) على تُرس فقد كان ضئيل الجسم نحيله.. ورفعته عشرات الرماح فألقته فى حديقة الموت بين الآلاف المؤلفة من جند مسيلمة فنزل عليهم نزول الصاعقة. وما زال يجالدهم أمام باب الحديقة ويُعمل فى رقابهم السيف حتى قتل عشرة منهم وفتح الباب وبه بضع[١] وثمانون جراحة ما بين رمية بسهم أو ضربة بسيف.. فتدفق المسلمون على حديقة الموت من حيطانها وأبوابها وأعملوا السيوف فى رقاب المرتدين اللائذين[٢] بجدرانها حتى قتلوا منهم قريبًا من عشرين ألفًا ووصلوا إلى مسيلمة فأردوه صريعًا.

حُمِل (البراء بن مالك) إلى رحله ليداوى فيه وأقام عليه (خالد بن الوليد) شهرًا يعالجه من جراحه حتى أذن الله له بالشفاء وكتب لجند المسلمين على يديه النصر.

ظل (البراء بن مالك) يتوق إلى الشهادة التى فاتته يوم حديقة الموت.. وطفق يخوض المعارك واحدة بعد أخرى شوقًا إلى تحقيق أمنيته الكبرى وحنينًا إلى اللحاق بنبيه الكريم ﷺ حتى كان يوم فتح (تُستر) من بلاد فارس فقد تحصن الفرس فى إحدى القلاع الممردة[٣] فحاصرهم المسلمون وأحاطوا بهم إحاطة السِّوار بالمعصم فلما طال الحصار واشتد البلاء على الفرس جعلوا يدلون من فوق أسوار القلعة سلاسل من حديد، عُلقّت بها كلاليب من فولاذ حميت بالنار حتى غدت أشد توهجًا من الجمر فكانت تنشب[٤] فى أجساد المسلمين وتعلق بها فيرفعونهم إليهم إما موتى وإما على وشك الموت.

فعلق كلاب منها (بأنس بن مالك) أخى (البراء بن مالك) فما أن رآه البراء

---

(١) البضع: من الثلاثة إلى التسعة .
(٢) اللائذين: المحتمين .
(٣) الممردة: الشاهقة العالية.
(٤) تنشب: تغرز وتعلق .

حتى وثب على جدار الحصن وأمسك بالسلسلة التى تحمل أخاه وجعل يعالج الكلاب ليخرجه من جسده فأخذت يده تحترق وتدخن فلم يأبه لها حتى أنقذ أخاه وهبط إلى الأرض بعد أن غدت يده عظامًا ليس عليها لحم فى هذه المعركة دعا البراء بن مالك الله أن يرزقه الشهادة فأجاب الله دعاءه، حيث خر صريعًا شهيدًا مغتبطًا بلقاء الله.

نضر الله وجه (البراء بن مالك) فى الجنة وأقر عينه بصحبة نبيه محمد ﷺ ورضى الله عنه وأرضاه[١].

بطل يبايع على الموت:

فى موقعة (اليرموك) التى دارت بين المسلمين والرومان عندما اشتد وطيس المعركة تقدم أحد الأبطال الأفذاذ إلى أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم أجمعين.

فقال له: «إنى قد عزمت على الشهادة فهل لك حاجة من رسول الله ﷺ أبلغها له حين ألقاه؟» فيجيب أبو عبيدة: (نعم قل له يا رسول الله إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا) ويندفع البطل كالسهم المقذوف يقاتل أعداء الله حتى نال الشهادة.[٢]

أبو أيوب الأنصارى يدفن تحت أسوار القسطنطينية:

هذا الصحابى الجليل يدعى خالد بن زيد بن كُليب من بنى النجار..

أما كنيته فأبو أيوب وأما نسبته فإلى الأنصار.. ومن منا معشر المسلمين لا يعرف أبا أيوب الأنصارى؟!

فقد رفع الله ذكره وأعلى قدره حين اختار بيته من دون بيوت المسلمين

---

(١) للاستزادة من أخبار البراء، انظر: الإصابة الترجمة: ٦٢٠، الطبقات الكبرى ٣/ ٤٤١ و ٧/ ١٧.

(٢) رجال حول الرسول ص (٣٢١).

جميعًا لينزل فيه النبى الكريم لما حل فى المدينة مهاجرًا، وحسبه بذلك فخرًا.

فهو واحد من أصحاب الهمم العالية.. فقد عاش أبو أيوب رضى الله عنه طول حياته غازيًا حتى قيل: إنه لم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون منذ عهد الرسول ﷺ إلى زمن معاوية إلا إذا كان منشغلًا عنها بأخرى.

وكانت آخر غزواته حين جهَّز معاوية جيشًا بقيادة ابنه يزيد لفتح القسطنطينية وكان (أبو أيوب) آنذاك شيخًا طاعنًا فى السن يحبو نحو الثمانين من عمره فلم يمنعه ذلك من أن ينضم إلى الجيش تحت لواء يزيد وأن يشق أمواج البحر غازيًا فى سبيل الله لكنه لم يمض غير قليل على منازلة العدو حتى مرض أبو أبوب مرضًا أقعده عن مواصلة القتال فجاء يزيد ليعوده وسأله:

ألك من حاجة يا أبا أيوب؟

فقال: اقرأ عنى السلام على جنود المسلمين وقل لهم: يوصيكم أبو أيوب أن توغلوا فى أرض العدو إلى أبعد غاية وأن تحملوه معكم وأن تدفنوه تحت أقدامكم عند أسوار القسطنطينية ولفظ أنفاسه الطاهرة.. استجاب جند المسلمين لرغبة صاحب الرسول الكريم ﷺ وكروا على جند العدو كرة بعد كرة حتى بلغوا أسوار القسطنطينية وهم يحملون أبا أيوب معهم.

وهناك حفروا له قبرًا وواروه فيه.

رحم الله أبا أيوب الأنصارى فقد أبى إلا أن يموت على ظهور الجياد الصافنات غازيًا فى سبيل الله وسنه تقارب الثمانين..)[1].

قصة لا تنسى:

فى غزوة أحد كان (لعبد الله بن جحش) رضى الله عنه وأرضاه وصاحبه

(١) الإصابة: طبعة السعادة: ٢/٢٨٩-٢٩٠، الاستيعاب (حيدر آباد): ١/١٥٢، أسد الغابة: ٥/١٤٣ - ١٤٤، صفة الصفوة: ١/١٨٦ - ١٨٧ .

(سعد بن أبى وقاص) معًا قصة لا تُنسى فلنترك الكلام (لسعد) ليروى لنا قصته وقصة صاحبه.

قال سعد بن أبى وقاص:

لما كانت أحد لقينى (عبد الله بن جحش) وقال: ألا تدعو الله؟

فقلت: بلى.

فخلونا فى ناحية فدعوت فقلت:

يا رب إذا لقيتُ العدو فلقنى رجلًا شديدًا بأسه شديدًا حرده[١] أقاتله ويقاتلنى ثم ارزقنى الظفر عليه حتى أقتله وآخذ سلبه، فأمن (عبد الله بن جحش) على دعائى ثم قال:

اللهم ارزقنى رجلًا شديدًا حرده شديدًا بأسه أقاتله فيك ويقاتلنى ثم يأخذنى فيجدع أنفى وأذنى فإذا لقيتك غدًا قلت:

فيم جُدع أنفك وأذنك؟

فأقول: فيك وفى رسولك، فتقول: صدقت..

قال سعد بن أبى وقاص:

لقد كانت دعوة (عبد الله بن جحش) خيرًا من دعوتى فلقد رأيته آخر النهار وقد قُتل ومُثل به، وإن أنفه وأذنه لمعلقان على شجرة بخيط.

استجاب الله دعوة (عبد الله بن جحش) فأكرمه بالشهادة كما أكرم بها خاله سيد الشهداء (حمزة بن عبد المطلب) فواراهما الرسول الكريم معًا فى قبر واحد ودموعه الطاهرة تُروى ثراهما المضمخ بطيوب الشهادة[٢].

---

(١) حرده: غضبه وثورته.

(٢) الإصابة: الترجمة ٤٥٧٤ - إمتاع الأسماع: ١/ ٥٥ - حلية الأولياء: ١/ ١٠٨.

خبيب بن عدى:

والآن افسحوا الطريق لهذا البطل يا رجال..

وتعالوا من كل صوب ومن كل مكان..

تعالوا خفافًا وثقالًا.. تعالوا مسرعين وخاشعين.. لتتعلموا درسًا فى الفداء ليس له نظير إنكم الآن أمام أستاذ جديد فى فن التضحية.. فإلينا يا عشاق الهمة العالية فى كل مكان وزمان.. تعالوا فانظروا أية عزة! هذا خبيب بن عدى بن مالك شهد أحدًا مع النبى ﷺ وكان فيمن بعثه مع بنى لحيان فأسروه هو وزيد بن الدثنة فباعوهما من قريش فقتلوهما وصلبوهما بمكة بالتنعيم ولما خرجوا به من الحرم ليقتلوه بالحل قال لهم خبيب: دعونى أصلى ركعتين فتركوه فركع ركعتين وقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بى من جزع لزدت: اللهم احصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تبق منهم أحدًا وأنشد يقول:

ولست أبالى حين أقتل مسلمًا ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلوٍ ممزع[1]

رجل صدق الله فصدقه:

إنها همة من نوع عجيب.. همة جعلت صاحبها يؤثر الباقى على الفانى.. همة جعلت صاحبها يحلق إلى جنة الله شوقًا منه وحرصًا شديدًا على رضا الله.. إنه رجل صدق الله فصدقه فاسمع أخى الحبيب إلى قصته بمسامع قلبك لا بمسامع رأسك.

* فعن شداد بن الهاد رضى الله عنه: أن رجلًا من الأعراب جاء إلى النبى ﷺ فآمن به واتبعه ثم قال: (أهاجر معك) فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه فلما كانت غزاة غنم النبى ﷺ شيئًا فقسم، وقسم له فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟

(١) رجال حول الرسول لخالد محمد خالد . ص ٣٩٧ .

قالوا: قسم قسمه لك النبى ﷺ. فأخذه فجاء به إلى النبى ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: «قسمته لك» قال: ما على هذا اتبعتُك ولكن اتبعتك على أن أُرمى إلى ههنا، وأشار إلى حلقه - بسهم فأموت فأدخل الجنة. فقال: «إن تصدق الله يصدقك» فلبثوا قليلًا ثم نهضوا من قتال العدو فأتى به النبى ﷺ يُحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبى ﷺ: «أهو هو؟!» قالوا: نعم قال: «صدق الله فصدقه» ثم كفنه النبى ﷺ فى جبته ثم قدمه فصلى عليه فكان مما ظهر من صلاته: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا فى سبيلك فقتل شهيدًا.. أنا شهيد على ذلك»(١)

يا لها من نفس صادقة! يا لها من نفس تمكن الإيمان منها فأعزها ورفعها حقًا إن الإيمان يصنع المعجزات.. يجعل المستحيل ممكنًا.. يجعل الصعب سهلًا.

سيف الله المسلول:

إنه الرجل الذى لا ينام ولا يترك غيره ينام.. سيف الله تعالى.. وفارس الإسلام وليث المشاهد.. قائد المجاهدين أبو سليمان (خالد بن الوليد) رضى الله تعالى عنه وأرضاه.. إن روح هذا الرجل وريحانه ليوجدان دائمًا وأبدًا حيث تصهل الخيل.. وتلتمع الأسنة، وتخفق رايات التوحيد فوق الجيوش المسلمة.. وإنه ليقول:

(ما ليلةٌ يُهدى إلى فيها عروس.. أو أبشر فيها بوليد.. بأحب إلى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبّح بهم المشركين).

من أجل ذلك كانت مأساة حياة هذا البطل - فى رأيه - أن يموت على فراشه فلما حضرته الوفاة قال ودموعه تنثال من عينيه:

(لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربة

---

(١) سنن النسائى ص٤٢٠ .

سيف أو طعنة رمح أو رمية سهم..

ثم هأنذا أموتُ على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير.. فلا نامت أعين الجبناء)!![١]

وروى عاصم بن بهدلة عن أبى وائل قال: لما حضرت خالدًا الوفاة قال: (لقد طلبتُ القتل مظانَّه فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى وما من عملى شىء أرجى عندى بعد التوحيد من ليلة بتُّها وأنا متترس والسماء تُهِلُّنى ننتظر الصبح حتى نغير على الكفار) ثم قال: (إذا مت فانظروا إلى سلاحى وفرسى فاجعلوهما عدة فى سبيل الله)[٢].

* وقد بلغ من شجاعته فى بعض حروبه أنه بينما كان قائد الفرس ينظم صفوفهم إذا بخالد ينقض عليه ويحتضنه بشدة ويخطفه كالبرق الخاطف ويأتى به أسيرًا بين ذراعيه إلى جيش المسلمين أمام ذهول الكفار من هذه الشجاعة النادرة.

وأخيرًا خرج جثمان البطل من داره محمولًا على أعناق أصحابه ورمقته أم البطل الراحل بعينين اختلط فيهما بريق العزم بغاشية الحزن فقالت تودعه:

أنت خير من ألف ألف من القو ... م إذا ما كَبَت وجوه الرجال
أشجاعٌ..؟ فأنت أشجع من ليـ ... ـث غضنفر يَذُوُد عن أشبال
أجوادٌ..؟ فأنت أجود من سيـ ... ـل غامر يسيل بين الجبال

وسمعها (عمر) رضى الله عنه فازداد قلبه خفقًا.. ودمعه دفقًا.. وقال:

(صدقت.. والله إن كان لكذلك).

وثوَى البطل فى مرقده.. ووقف أصحابه فى خشوع.. والدنيا من حولهم هاجعة.. خاشعة.. صامتة.

---

(١) أسد الغابة ٢/ ١١١.
(٢) الإصابة ٣/ ٧٤.

لم يقطع الصمت المهيب سوى صهيل فرس جاءت - كما نتخيلها - تركض بعد أن خلعت رسَنها وقطعت شوارع المدينة وثبًا وراء جثمان صاحبها يقودها عبيرُه وأريجه.

وإذ بلغت الجمع الصامت والقبر الرطب لوّحت برأسها كالراية.. وصهيلها يصدح.. تمامًا مثلما كانت تصنع والبطل فوق ظهرها يهدُّ عروش فارس والروم، ويشفى وساوس الوثنية والبغى.. ويزيح من طريق الإسلام كل قُوى التقهقر والشرك.. وراحت وعيناها على القبر لا تزيغان - تعلو برأسها وتهبط، مُلوحة لسيدها وبطلها مؤدية له تحية الوداع..!!

ثم وقفت ساكنة.. ورأسها مرتفع.. وجبهتها عالية.. ولكن من مآقيها تسيل دموع غزار وكبار..!!

لقد وقفها خالد مع سلاحه فى سبيل الله.

ولكن هل سيقدر فارس على أن يمتطى صهوتها بعد خالد؟

وهل ستذلل ظهرها لأحد سواه..؟

إيه يا بطل كل نصر..

ويا فجر كل ليل..

لقد كنت تعلو بروح جيشك على أهوال الزحف بقولك لجندك:

(عند الصباح يحمد القوم السُّرَى).

حتى ذهبت عنك مثلًا..

وهأنتذا قد أتممت مسراك..

فلصباحك الحمد، أبا سليمان..

ولذكراك المجد.. والعطر والخلد، يا خالد..!!

ودعنا نردد مع أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) كلماته العذاب الرطاب التى ودعك بها ورثاك:

* رحم الله أبا سليمان.

* ما عند الله خير مما كان فيه.

* ولقد عاش حميدًا.

* ومات سعيدًا

الشهيد الطائر:

أحبتى فى الله.. أنتم الآن أمام عظيم من عظماء الإسلام الذين أسهموا أعظم إسهام فى صوغ ضمير الحياة.. أنتم أمام أشبه الناس برسول الله ﷺ خَلقًا وخُلقًا.. أنتم أمام من كناه الرسول ﷺ بـ (أبى المساكين).

أنتم أمام من لقبه الرسول ﷺ بـ (ذى الجناحين).

أنتم تلقاء (طائر الجنة) الغريد.. أنتم أمام البطل المقدام والفارس الهمام جعفر بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه وأرضاه - إنه صاحب الفؤاد الذى طار شوقًا إلى الجنة.. وأخذ يتحين فرصة الشهادة ويترقب لحظاتها المجيدة..!!

وفى غزوة (مؤتة) رأى هذا الصحابى الجليل فرصة العمر فإما أن يحقق نصرًا كبيرًا لدين الله وإما أن يظفر باستشهاد عظيم فى سبيل الله.. وتقدم من رسول الله ﷺ يرجوه أن يجعل له فى هذه الغزوة مكانًا.

كان (جعفر) يعلم علم اليقين أنها ليست نزهة.. بل ولا حربًا صغيرة.. إنما هى حرب لم يخض الإسلام مثلها من قبل.. حرب مع إمبراطورية الروم التى تملك من العدد والعتاد والخبرة والأموال ما لا قبل للعرب ولا للمسلمين به.. ومع هذا طار قلبه شوقًا إليها.. وكان ثالث ثلاثة جعلهم الرسول ﷺ قواد الجيش وأمراءه.

وخرج الجيش وخرج (جعفر) معه..

والتقى الجمعان فى يوم رهيب.

وبينما كان من حق (جعفر) أن تأخذه الرهبة عندما بَصُر بجيش الروم ينتظم مائتى ألف مقاتل، فإنه على العكس أخذته نشوة عارمة إذ أحس فى أنفة المؤمن العزيز واعتداد البطل المقتدر أنه سيقاتل أكفاء له وأندادًا..!!

وما كادت الراية توشك على السقوط من يمين (زيد بن حارثة) حتى تلقاها (جعفر) باليمين.. ومضى يقاتل بها فى إقدام خارق.. إقدام رجل لا يبحث عن النصر بل عن الشهادة..

وتكاثر عليه وحوله مقاتلة الروم.. ورأى فرسه تعوق حركته فاقتحم عنها فنزل.. وراح يصوب سيفه ويسدده إلى نحور أعدائه كنقمة القَدر ولمح واحدًا من الأعداء يقترب من فرسه ليعلو ظهرها فعز عليه أن يمتطى صهوتها هذا الرجس فبسط نحوها سيفه وعقرها..!!

وانطلق وسط صفوف الروم المتكالبة عليه يُدمدم كالإعصار وصوته يتعالى بهذا الرجز المتوهج:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
على إذ لاقيتُها ضِرابها

وأدرك مقاتلو الروم مقدرة هذا الرجل الذى يقاتل وكأنه جيش لجِب.. وأحاطوا به فى إصرار مجنون على قتله.. وحُوصر بهم حصارًا لا منفذ فيه لنجاة..

وضربوا بالسيوف يمينه وقبل أن تسقط الراية منها على الأرض تلقاها بشماله.. وضربوها هى الأخرى.. فاحتضن الراية بَعَضُدَيه..

فى هذه اللحظة تركزت كل مسئوليته فى ألا يدع راية رسول الله ﷺ تلامس

التراب وهو حى.

وحين تكومت جثته الطاهرة كانت سارية الراية مغروسة بين عَضُدَى جُثمانه ونادت خفقاتها (عبد الله بن رواحة) فشق الصفوف كالسهم نحوها وأخذها فى قوة ومضى بها إلى مصير عظيم!! .

وهكذا صنع (جعفر) لنفسه ميتة من أعظم ميتات البشر..!!

وهكذا لقى ربه الكبير المتعالى مُضمَّخًا بفدائيته، مُدَثَّرًا ببطولته..

وأنبأ الخبير العليم رسوله ﷺ بمصير المعركة وبمصير (جعفر) فاستودعه الله وبكى.

وقام إلى بيت ابن عمه.. ودعا بأطفاله وبنيه فتشممهم وقبلهم وذرفت عيناه.

ثم عاد الرسول الكريم ﷺ إلى مجلسه وأصحابه حافون به.. ووقف شاعر الإسلام (حسان بن ثابت) يرثى جعفرًا ورفاقه:

قال (حسان بن ثابت) يرثى (جعفرًا) ورفاقه:

غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم ... إلى الموت ميمون النقيبة أزهرُ
أغر كضوء البدر من آل هاشم ... أبىٌّ إذا سِيمَ الظُّلامة مِجسرُ
فَطاعَنَ حتى مالَ غير مُوَسّدٍ ... لمعترك فيه القنا يتكسرُ
فصار مع المستشهدين ثوابه ... جنانٌ ومُلتفُّ الحدائق أخضرُ
وكُنَّا نرى فى جعفر من محمد ... وفاءً وأمرًا حازمًا حين يأمرُ
فما زال فى الإسلام من آل هاشم ... دعائم عزٍّ لا يَزُلْنَ ومفخرُ

وينهض بعد (حسان)، (كعب بن مالك) فيرسل شعره الجزل:

وجدًا على النفر الذين تتابعوا ... يومًا بمؤتة أُسنِدُوا لم يُنقلوا
صلى الإلهُ عليهمو من فتية ... وسقى عظامَهم الغمامُ المُسْبِلُ
صبروا بمؤتَةَ للإلهِ نفوسهم ... حذر الرَّدى ومخافة أن ينكلوا
إذ يهتدون بجعفر ولوائه ... قدَّام أوَّلهم، فنعم الأولُ

حتى تفرَّجت الصفوف وجعفر حيث التقى وعْث الصفوف مُجَدَّل
فتغير القمر المنير لفقده والشمس كسفت وكادت تأفل

ورحل البطل المقدام إلى الرفيق الأعلى إلى جنة ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

إنه هنالك فى جنان الخلد يحمل أوسمة المعركة على كل مكان من جسد أنهكته السيوف والرماح.

وإن شئتم فاسمعوا قول الرسول الكريم ﷺ: «لقد رأيته فى الجنة.. له جناحان مضرَّجان بالدماء.. مصبوغ القوادم».

فهنيئًا يا (جعفر) جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

وهنيئًا يا (جعفر) مجاورة خير الأنام وأفضل الخلق محمد بن عبد الله.

نماذج من مجاهدى التابعين:

بعد أن وقفنا أمام هذه الكوكبة من مجاهدى الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين هيا بنا نقف مع كوكبة أخرى من مجاهدى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

شهيد من أهل الذكر والذاكرين:

وهذا نموذج فريد لبطل مقدام من التابعين هو (صلة بن أشيم العدوى) من كبار التابعين من أهل البصرة وكان ذا فضل وورع وعبادة وزهد كان يصلى حتى ما يستطيع أن يأتى الفراش إلا حبوًا وله مناقب كثيرة جدًا وكان يكثر من صلاة الليل فى الغزوات التى يشارك فيها مقاتلًا مع الجيش وقال رجل لصلة: ادع الله لى.. فقال:

(رغبك الله فيما يبقى.. وزهدك فيما يفنى ورزقك اليقين الذى لا يرجى إلا إليه ولا يعوَّل فى الدين إلا عليه).

وكان صلة فى غزاة ومعه ابنه، فقال: أى بنى تقدم فقاتل حتى أحتسبك.. فحمل فقاتل حتى قُتل ثم قاتل صلة حتى قُتل.

واجتمع النساء عند امرأته معاذة العدوية فقالت:

إن كنتن جئتن لتهنئننى فمرحبًا بكن.

وإن كنتن جئتن لتعزيننى فارجعن[1].

إنها عظمة الإيمان إذا باشرت شغاف القلوب تكاد تصنع المعجزات تكاد تجعل المستحيل ممكنًا.. تكاد تجعل الصعب سهلًا.. تجعل القلوب تطير شوقًا إلى جنة الله والشهادة فى سبيل الله رب العالمين.

العالم العابد المجاهد عبد الله بن المبارك:

كان عبد الله بن المبارك رضى الله عنه وأرضاه القدوة فى الزهد.. والقيام.. والذكر.. كان كذلك الإمام المجاهد بلسانه وسنانه حتى أصبح مثلًا يحتذى وقدوة للمجاهدين.. وهو الذى يرسل لصاحبه (الفضيل بن عياض) من ساحات الشهادة هذه الأبيات قال:

روى عن محمد بن إبراهيم بن أبى سكينة قال: أملى علىّ ابن المبارك سنة سبع وسبعين ومائة وأنفذها معى إلى الفضيل بن عياض، من طرسوس:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله فى باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبار خيل الله فى ... أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٩/١٧، ١٨ .

قال: فألقيت هذا الكتاب على الفضيل فى الحرم فقرأه وبكى ثم قال: صدق أبو عبد الرحمن ونصح[١].

أخى الحبيب.. بعد هذا العرض لهؤلاء الأبطال وهؤلاء الأفذاذ نختم كلامنا فى هذا الباب الطيب المبارك ببيان ثواب الجهاد والمجاهدين فى سبيل الله رب العالمين.. وبيان ما هم فيه من نعيم وفضل فهم أحياء عند ربهم يرزقون لهم البشرى والسعادة والهناءة والسرور فما هو ثواب المجاهد فى سبيل الله؟

أفضل الأعمال:

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال:

سئل رسول الله ﷺ أى العمل أفضل؟ قال:

«إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «جهاد فى سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»[٢].

اللون لون دم والريح ريح مسك:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «ما من مكلوم[٣] يُكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكَلمُهُ يَدمى: اللون لون دم والريح ريح مسك»[٤].

هنيئًا لكم الشهادة:

* فعن مسروق رضى الله عنه قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية:

---

(١) الذهبى سير أعلام النبلاء ٨/ ٤١٢ .
(٢) متفق عليه .
(٣) مكلوم: مجروح .
(٤) متفق عليه .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١].

فقال: (أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أى شىء نشتهى ونحن نسرح فى الجنة حيث نشاء؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا)[٢].

* * *

(١) سورة (آل عمران): ١٦٩ .
(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه .

الباب العاشر
الهمة فى الإخلاص

اعلم أخى الحبيب رحمنى الله وإياك أن الإخلاص فى العمل هو شرط قبول العمل..

قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(١).

قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا على، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا.

والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة الصحيحة ثم قرأ قوله تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(٢)

فالإنسان فى الحياة الدنيا قد يفعل أفعالًا كالجبال يظن أن هذه الأفعال سوف تكون سببًا فى فلاحه ونجاحه يوم العرض على خالق السموات والأرض ولكنه يفاجأ يوم القيامة أن هذه الأعمال تكون سببًا فى شقائه والعياذ بالله، قال تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾(٣)

لماذا؟ لأن أعماله لم تكن على السنة وأُريد بها غير وجه الله رب العالمين.

---

(١) سورة (الملك): ١: ٢.
(٢) سورة (الكهف): ١١٠.
(٣) سورة (الفرقان): ٢٣.

قالوا عن الإخلاص[١]:

قيل إنه سر بين العبد وربه لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا يطلع عليه شيطان فيبطله ولا هوى فيميله.

* وقيل: الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

* وقيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد فى الطاعة.

* وقيل: من شهد فى إخلاصه الإخلاص احتاج إخلاصه إلى إخلاص.

* وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد فى الظاهر والباطن.

* وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

* ومن كلام الفضيل رحمه الله: ترك العمل من أجل الناس: رياء. والعمل من أجل الناس: شرك. والإخلاص: أن يعافيك الله منهما.

* وقال بعضهم: الإخلاص ألا تطلب على عملك شاهدًا إلا الله، ولا مجازيًا سواه.

* وقال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

أول ثلاثة تسعر بهم النار:

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأُتى به فعرَّفهُ نعمتهُ فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كَذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جرىء! فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقى فى النار.. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأُتى به

(١) نقلًا عن كتاب (مدارج السالكين) ص (٦٦: ٦٧).

فعرّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال: عالم! وقرأت القرآن ليقال: قارئ! فقد قيل، ثم يأمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل وَسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأُتى به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلتَ ليقال: جواد! فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار»[1].

فتأمل أخى الحبيب رحمنى الله وإياك إلى هؤلاء الثلاثة وإلى أعمالهم إنها أعمال كالجبال... شهيد.. عالم.. ومتصدق.. ومع هذا نجدهم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة لماذا؟

لأن أعمالهم لم تكن خالصة لوجه الله الكريم، ولكنها كانت من أجل الناس فهذه صورة مظلمة للرياء فى العمل، وإليك عزيزى القارئ هذه الصور المضيئة للإخلاص والمخلصين.

الغلام المؤمن والساحر:

عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إنى قد كبرت فابعث إلىَّ غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يُعلمه فكان فى طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه.. فكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسنى أهلى، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسنى الساحر.

وبينما الغلام سائر إذ رأى دابة عظيمة (أفعى) قد حبست الناس.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه: (رياض الصالحين) ص ٥٩٢ .

الغلام (فى نفسه): اليوم أعلم، الساحر أفضل أم الراهب؟

الغلام يأخذ حجرًا: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس.

(يرمى الغلام الدابة فيقتلها ويمضى الناس) يأتى الغلام الراهب فيخبره.

الراهب (متعجبًا): أى بُنى، أنت اليوم أفضل منى، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علىَّ.

الغلام يُبرئ الأكمه (الأعمى) والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء (الأمراض).

يسمع جليس للملك كان قد عمى فيُقدِّم للغلام هدايا كثيرة.

الأعمى (راجيًا): كل هذه الهدايا لك إن أنت شفيتنى!

الغلام (مرشدًا): إنى لا أشفى أحدًا، إنما يشفى الله تعالى، فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك.

(يؤمن الأعمى فيشفيه الله تعالى).

يأتى الجليس الملك فيجلس إليك كما كان يجلس.

الملك (متعجبًا): مَنْ ردَّ عليك بصرك؟!!

الجليس (فى فرح): ربى!

الملك (منكرًا): أو لك رب غيرى؟!!

الجليس (فى شجاعة): ربى وربك الله.

يأخذه الملك فلم يزل يعذبه حتى يدل على الغلام فيؤتى بالغلام.

الملك (مهددًا): أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل!!

الغلام: إنى لا أشفى أحدًا، إنما يشفى الله تعالى.

يأخذ الملك الغلام فلا يزال يعذبه حتى دل على الراهب فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فيأبى، فيدعو الملك بالمنشار فيضع المنشار فى مفرق رأسه فيشقه به حتى يقع شقاه على الأرض!!

ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فيأبى فيضع المنشار فى مفرق رأسه، فيشقه به حتى وقع شقاه. ثم يؤتى بالغلام فيقال له: ارجع عن دينك فيأبى فيدفعه الملك إلى نفر من أصحابه.

الملك (غاضبًا) اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه.

(يذهبون بالغلام ويصعدون به الجبل)

الغلام (داعيًا عليهم): اللهم اكفنيهم بما شئت.

(يرجف بهم الجبل فيسقطون ويجيء الغلام يمشى إلى الملك).

الملك (فى حيرة): ما فعل أصحابك؟!

الغلام (فى شجاعة) كفانيهم الله تعالى.

(يدفعه الملك إلى نفر من أصحابه).

الملك: اذهبوا به فاحملوه فى قرقور (زورق) وتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه.

(يذهبون بالغلام)

الغلام (داعيًا): اللهم اكفنيهم بما شئت.

تنكفئ بهم السفينة فيغرقون!! ويجيء الغلام إلى الملك يمشى!!

الملك (فى قهر وخذلان): ما فعل أصحابك؟

الغلام (فى طمأنينة): كفانيهم الله تعالى.

الغلام (للملك): إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به!!

الملك (فى عجز ويأس): وما هو؟

الغلام: تجمعُ الناس فى صعيد واحد، وتصلبنى على جذع.. ثم خذ سهمًا من كنانتى ثم ضع السهم فى كبد القوس، ثم قل: (بسم الله رب الغلام).

ثم ارمنى فإنك إذا فعلت ذلك تقتلنى.

(يجمع الناس فى صعيد واحد ويصلب الغلام على جذع ثم يأخذ الملك سهمًا من كنانة الغلام ثم يضع السهم فى كبد القوس ثم يقول: (بسم الله رب الغلام) ثم يرميه فيقع السهم فى صُدغه فيضع يده فى صدغه فى موضع السهم ويموت.

الناس (يهتفون): آمنا برب الغلام.. آمنا برب الغلام.. آمنا برب الغلام.. (يجىء الجند إلى الملك).

الجند (فى أسف): أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل به حَذَرُك.

قد آمن الناس.

الملك (فى غيظ): احفروا الأخدود (الخنادق) بأفواه السكك وأضرموا فيها النيران، ومن لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها (اطرحوه).

الجند على أطراف الأخدود يَعرضون الشعب المؤمن على النار ويَعرضون عليهم أن يرجعوا عن دينهم فمن لم يرجع أوقعوه فى النار.

على حافة النار امرأة معها رضيع تخشى عليه فتتردد وتتقاعس أن تقع فى النار.

الرضيع (يقول): يا أمه اصبرى فإنك على حق[١].

هكذا تكون الهمة العالية فى الإخلاص غلام يضحى بحياته من أجل توحيد الله وشعب يدخل النار ويثبت على إيمانه وإخلاصه لله رب العالمين وطفل رضيع ينطق بقدرة الله ليثبت أمه على الإيمان.

إنها همة ما أعظمها من همة!!

الإخلاص من أسباب النجاة:

من فضائل الإخلاص فى العمل أنه سبب من أسباب النجاة فى الدنيا والآخرة والدليل قصة أصحاب الغار فهيا بنا نسمع قصتهم من أطيب فم ومن أطهر فم من فم رسول الله ﷺ.

* عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (انطلق ثلاثة نفر[٢] ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار. فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم.

قال رجل منهم: اللهم إنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق[٣] قبلهما أهلًا ولا مالًا فنأى[٤] بى طلب الشجر يومًا فلم أرح[٥] عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فلبثت[٦] - والقدح على يدى - أنتظر استيقاظهما حتى برق

(١) أخرجه الإمام مسلم ٤/ ٣٠٠٥ .
(٢) نفر: من ثلاثة إلى عشرة .
(٣) لا أقدم فى الشرب قبلهما .
(٤) بَعُد .
(٥) لم أرجع .
(٦) انتظرت .

الفجر - والصبية يتضاغون[١] عند قدمى - فاستيقظا فشربا غبوقهما: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت[٢] شيئًا لا يستطيعون الخروج منه.

قال الآخر: اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحبَّ الناس إلى (وفى رواية كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء) فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى ألمت[٣] بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها (وفى رواية: فلما قعدت بين رجليها)[٤] قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم[٥] إلا بحقه، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم إنى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب فثمرتُ أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إلىَّ أجرى فقلت: كل ما ترى من أجرك: من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بى، فقلت: لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه[٦] فلم يترك منه شيئًا: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»[٧].

هكذا كان الإخلاص فى العمل من أسباب النجاة فى الدنيا وكذلك من أسباب النجاة يوم العرض على خالق السموات والأرض.

---

(١) يصيحون.
(٢) اتسعت.
(٣) أى نزلت.
(٤) جلست السيدة جلسة الجماع من الرجل.
(٥) لا تُزِل البكارة إلا بالتزويج والنكاح الحلال.
(٦) أخذه وساقه إلى رحله ومنزله.
(٧) متفق عليه.

فالهمة العالية في الإخلاص أن تبتغى بعملك دائمًا وجه ربك عز وجل ومن علامات الإخلاص فى العمل ألا يؤثر فيك المدح أو الذم لأنك عملت لله رب العالمين ليس من أجل شهرة بين العباد أو مدح أو ثناء ولكنه ابتغاء مرضاة الله رب العالمين.

* * *

الخاتمة

وفى الختام..

أتوجه إلى الله تعالى أن ينصر الإسلام والمسلمين

وأن يرفع البلاء والغلاء عن أمة الإسلام

اللهم اصرف عنّا من البلاء ما نعلم...

اللهم اصرف عنا من البلاء ما لا نعلم.

اللهم اصرف عنا من البلاء ما أنت به أعلم..

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده لا شريك له وما كان من خطأ أو سهوٍ أو نسيان فمنى ومن الشيطان والله ورسوله منه براء..

وأسأل الله العفو عن التقصير فإنه ولى ذلك وأهله

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أبو أحمد

سيد بن عبد العاطى بن محمد

فهرس المراجع

١- تفسير القرآن العظيم لابن كثير
٢- البداية والنهاية ،، ،،
٣- شرح صحيح البخارى لابن حجر
٤- صحيح مسلم شرح الإمام النووى
٥- فقه السنة للشيخ: سيد سابق
٦- سبل السلام للإمام الصنعانى
٧- شرح السنة للإمام البغوى
٨- منهاج الصالحين لأبى الحسن الندوى
٩- مدارج السالكين لابن قيم الجوزية
١٠- إغاثة اللهفان ،، ،، ،،
١١- الوابل الصيب ،، ،، ،،
١٢- عدة الصابرين ،، ،، ،،
١٣- سيرة ابن هشام لابن إسحاق
١٤- فقه السيرة للإمام محمد الغزالى
١٥- الرحيق المختوم للمباركفورى
١٦- مع السيرة النبوية للشيخ أحمد فريد
١٧- الحب فى الله للشيخ أحمد فريد
١٨- البحر الرائق فى الزهد والرقائق للشيخ أحمد فريد
١٩- الحق المر للشيخ محمد الغزالى
٢٠- قذائف الحق ،، ،، ،،
٢١- رجال حول الرسول للأستاذ خالد محمد خالد
٢٢- رياض الصالحين للإمام النووى
٢٣- الأذكار للإمام النووى
٢٤- خلق المسلم للشيخ محمد الغزالى
٢٥- إحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبى حامد الغزالى.
٢٦- الموطأ للإمام مالك
٢٧- شرح سنن النسائى للحافظ جلال الدين السيوطى
٢٨- العبادات فى الإسلام د. عبد الله على سمك
٢٩- زاد المعاد لابن قيم الجوزية
٣٠- نيل الأوطار للشوكانى
٣١- كتاب الأمة المستقبل للإسلام د.أحمد على الإمام
٣٢- جبال الذنوب وسيل الغفران، أبو طلحة محمد يونس عبد الستار
٣٣- من بدائع القصص النبوى، محمد ابن جميل زينو

٣٤- حلية الأولياء لأبى نعيم
٣٥- الخوف من الله، مجدى فتحى السيد
٣٦- تقاليد يجب أن تزول، محمود مهدى استانبولى
٣٧- التذكرة، للإمام القرطبى
٣٨- الفوائد، لابن قيم الجوزية
٣٩- منهج القرآن فى بيان مسالك الشيطان، أ/ أحمد متولى
٤٠- سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى
٤١- تاريخ الإسلام للإمام الذهبى
٤٢- مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسى
٤٣- تأملات فى الدين والحياة، للشيخ محمد الغزالى
٤٤- الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوى

فهرس الموضوعات

الإهداء ٣

المقدمة ٥

الباب الأول: مفهوم الهمة العالية ٩

الباب الثاني: الهمة في الحُب ١١

أولاً: الهمة في حب الله ١١

الخليل إبراهيم وهمته في حب الله ١٥

الحبيب محمد وهمته في محبة الله ٢٢

ثانيًا: الهمة العالية في حب رسول الله ٢٧

خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة ٢٧

حب من نوع عجيب ٢٨

أهل المدينة واستقبال الرسول ٢٨

الرسول في دار أبي أيوب الأنصاري ٢٩

ثالثًا: الهمة العالية في محبة الخلق ٣١

عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ٣٤

هذا هو الحب ٣٥

من هم الأصدقاء؟! ٣٦

صداقة كاذبة ٣٧

الباب الثالث: الهمة في التقوى ٣٩

الإمام على بن أبي طالب ووصف الدنيا ٣٩

وصية عبد خائف من الله ٤٤
الفاروق عمر وشدة خوفه من الله ٤٥
القلب العامر والقلب الخرب ٤٥
ضرب مثل للخوف فاسمعوه ٤٥
عظة وعبرة ٤٦
من هو العالم؟ ٤٦
ومع هذا لا يعتبر ٤٦
هؤلاء هم أصحاب محمد ٤٦
مات وخرجت نفسه من الخوف ٤٧
هذا هو الخوف حقًّا ٤٧
رضى الله عنك يا صديق ٤٨
ينبغي لحامل القرآن ٤٨
هؤلاء هم الخائفون ٤٨
نساء طائعات خائفات ٤٩
وصية وعظة ٥١
الخوف في وحي الشعراء ٥١
ثمرات الخوف ٥٢
الباب الرابع: الهمة في التوبة ٥٥
التوبة وطول الأمل ٥٧
شروط التوبة ٥٧
حرب من نوع غريب! ٥٨

تنبيه هام ٥٩
لمثل هذا فأعدوا يا إخواني ٦٠
تفكر جيدًا! ٦١
مع التائبين ٦٣
توبة ما أعظمها! ٦٣
رجعت ولكن نار المعصية تكاد تحرق كبدها ٦٤
توبة قاتل المائة ٦٥
إن في ذلك لعبرة ٦٦
توبة وندم ٦٧
الباب الخامس: الهمة في الصبر ٧١
تعريف الصبر ٧١
أقسام الصبر ٧١
الأمر بالصبر ٧٢
فضل الصبر ٧٢
الهمة العالية في الصبر ٧٣
هكذا تكون الهمة في الصبر ٧٤
صبر من نوع عجيب ٧٥
إنما الصبر عند الصدمة الأولى ٧٦
نِعمَ الصبر صبرُك يا عروة! ٧٧
نِعمَ المرأة كانت ٧٨
نِعمَ الجواب ٧٨

حقيقة الصبر ٧٨
الباب السادس: الهمة في الصدق ٧٩
رضينا بالأمين . . رضينا بالأمين ٨٠
على جبل الصفا ٨١
هكذا يكون الصدق مع النفس ٨٢
المؤمن لا يكون كذابًا ٨٣
أبغض الصفات إلى رسول الله ٨٣
الصدق يهدي إلى البر ٨٤
الكذب من علامات النفاق ٨٥
الكذب يمحق البركة ٨٥
لو لم تعطه كتبت عليك كذبة! ٨٥
الترهيب من الوقوع في الكذب ٨٥
الكذب في الرؤيا أو الحلم ٨٦
ليس هذا من الكذب ٨٧
إياكم والكذب ٩٠
حقيقة الصدق ٩٠
هذا هو الصادق ٩٠
الباب السابع: الهمة في التوكل ٩١
يا لها من سعادة! ٩١
تعريف التوكل على الله ٩١
شروط التوكل الصحيح ٩٢

هكذا يكون الرضا بالقضاء ٩٧
الرضا بالقضاء مصدر العزة والقوة ١٠٠
قصة وعبرة ١٠١
التوكل في القرآن ١٠٢
التوكل في السنة المطهرة ١٠٣
من بدائع القصص النبوي في التوكل على الله ١٠٤
الباب الثامن: الهمة في العزة ١٠٧
هكذا تكون العزة ١٠٧
وامعتصماه .. وامعتصماه ١٠٩
حقًّا إنها عزة الإسلام ١٠٩
الباب التاسع: الهمة في الجهاد ١١١
سيد المجاهدين ١١١
نِعمَ الرجل كنت يا نعمان! ١١٣
عمير بن الحمام والهمة العالية ١١٥
إيمان كالجبال الرواسي ١١٦
شيخ عَزَم على أن يطأ بعرجته الجنة ١١٦
هو الشهيد وأبو الشهيد ١١٩
فتى الأنصار البراء بن مالك الأنصاري ١٢١
بطل يُبايع على الموت ١٢٦
أبو أيوب الأنصاري يدفن تحت أسوار القسطنطينية ١٢٦
قصة لا تنسى ١٢٧

خبَيْب بن عدي ١٢٩
رجل صدق الله فصدقه ١٢٩
سيف الله المسلول ١٣٠
الشهيد الطائر ١٣٣
نماذج من مجاهدي التابعين ١٣٦
شهيد من أهل الذكر والذاكرين ١٣٦
العالم . . العابد . . المجاهد «عبد الله بن المبارك» ١٣٧
أفضل الأعمال ١٣٨
اللون لون دم والريح ريح مسك ١٣٨
هنيئًا لكم الشهادة ١٣٨
الباب العاشر: الهمة في الإخلاص ١٤١
قالوا عن الإخلاص ١٤٢
أول ثلاثة تسعر بهم النار ١٤٢
الغلام المؤمن والساحر ١٤٣
الإخلاص من أسباب النجاة ١٤٧
الخاتمة: ١٥١
فهرس المراجع ١٥٣
فهرس الموضوعات ١٥٥

* * *